القرآن يتحدث إليكم

ألّفه

فضيلة الشيخ محمد منظور النعماني رحمه الله

(١٩٠٦-١٩٩٧م)

منشئ مجلة "الفرقان" الشهرية، لكناؤ

وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي سابقاً ، مكه المكرمة

نقله إلى العربية

سعيد الاعظمي الندوي

رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي"

ندوة العلماء ، لكناؤ (الهند)

الناشر: الاكاديمية النعمانية

في ذكرى: الامام المحدث الشيخ محمد منظور النعماني رحمه الله

Nomani Academy

© 2008-2014 NOMANI ACADEMY
All rights reserved, unauthorised copying,reproduction stricvtly prohibited

حقوق الطبع محفوظة للناشر

اسم الكتاب :	القرآن يتحدث إليكم
المؤلف:	الامام المحدث الشيخ محمد منظور النعمانی رحمه الله (فی اللغة الأردية) (قرآن آپ سے کیا کہتا ہے؟)
المترجم :	فضيلة الأستاذ الشيخ سعيد الأعظمي الندوي
اهتم بالطبع:	الأستاذ محمد فرمان الندوي ـ وبلال سجاد النعمانی
الطبعة الأولى:	١٤٣٥ھ، المصادف ٢٠١٣م
الصفحات:	١٧٦
الناشر:	الأكاديمية النعمانية في ذكرى: الامام المحدث الشيخ محمد منظور النعمانی رحمه الله 114/31,Nazirabad Lucknow.226018

يطلب الكتاب من:

- المكتبة الندوة، ندوة العلماء لكناؤ۔
- مكتبة الشباب العلمية، شارع الندوة، لكناؤ۔
- الزاوية النعمانية المجددية، ممدافور، نيرل، رائے جراہ، مهارشتر۔
- الأكاديمية النعمانية، 114/31، نظير آباد، لكناؤ۔
- مكتبة الفرقان 114/31، نظير آباد، لكناؤ، الهند۔

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ
وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا

[الإسراء : ٩]

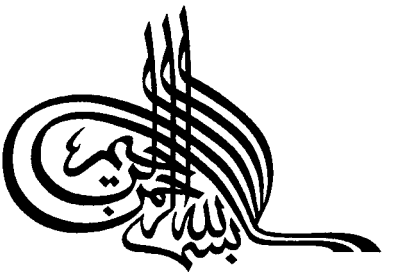
بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى. امّا بعد:

فغالبا ما تكون هي الماسي والازمات التي تصنع عباقرة الرجال وائمة القادة، وتكون هي المهازل التي تحيي الامم وتنعش الشعوب. وغالبا لا تفيق هذه الامم الغارقة في السبات إلا بعد ما تغصّ مرارات الخزي وجرعات الذل والهوان.

إن الامة الإسلامية الهندية لا تختلف حكايتها عن هذه السّنّة التاريخية. تلك الامة التي ظلت على اوج العلم والخير والعطاء الحضاري. حيث دبّ إليها الفساد الديني والاخلاقي والتناخر الاجتماعي وعوامل الضعف والانهيار، حتى تالبت عليها القوى المستعمرة فسلبت خيراتها وعملت على إنهاكها وإفساد دينها وتشتيت شملها وفعلت بها الافاعيل. ولم يغادر الاستعمار إلا بعد ما حسم الامر بتقسيم البلاد، فزاد الطين بلة، حيث وجد المسلمون انفسهم اقلية مضطهدة في احلك وادقّ الاوضاع.

في هذا الوضع المتازم والمتعقّد قيض الله لهذه الامة جيلا من القادة والعلماء والدعاة الذين ارتفعوا عن المستوى العام والحضيض المنحطّ ليجابهوا المعاناة وينادوا بالرجوع إلى الله ويعملوا على الإصلاح العام وينفخوا في الامة روحا جديدة من الثبات والكفاح.

كان فضيلة الإمام الشيخ العلامة الداعية المجاهد محمد منظور النعماني ـ رحمه الله ـ من طليعة هذه الطائفة المنصورة المجاهدة، استفاد ـ رحمه الله ـ من جهابذة العلماء من امثال الإمام محمد انور شاه الكشميري، وبدا انشطته وجهاده منذ شرخ شبابه يدعو إلى الله وإلى العقيدة الصافية والتمسّك بالكتاب والسنة عقيدةً وشريعة، وينتقد على اهل الاهواء وانصار البدع، ويناضل عن حقوق المسلمين الهنود، ويسعى لصيانة الإسلام والمسلمين من خطر فقدان الهوية الإسلامية؛ الهدف الذي كانت- ولاتزال- قوى الفكر والإحاد تبذل قصارى جهودها وكانت- ولاتزال- تدبّر موامرات ومخططات للوصول إليه، وقد اتخذ الشيخ من لسانه وقلمه سلاحا لدعوته وكفاحه فجال في البلاد يدعو ويخطب ويشارك في اعمال الامة يحدو بهمم المسلمين ويحرك فيهم دوافع الغيرة، وانشا مجلته الشهيرة "الفرقان"، والف مؤلفات نافعة مقبولة رائجة. عاش حياة حافلة بالعمل والحركة ما بين اول الثلاثينات إلى اخر الثمانينات من القرن الميلادي الماضي، فلا نجد في هذه الفترة الطويلة والمتازمة قضية من قضايا المسلمين إلا ويقوم ويتحرك لها الشيخ النعماني ويقوم فيها

بدور ريادي، وكان رحمه الله من العلماء الربانيين المرموقين في الزهد والعزوف عن الدنيا وزخارفها والمعروفين بكثرة التاله والعبادة والذكر وحسن الاخلاق ولين العريكة. وقد كتب الله لشيخنا القبول في حياته ووضع له لسان الصدق بعد مماته، فتربّى على يديه عدد كثير واستفادوا منه.

وإن مما امتاز به سماحته هو معرفته بنفسية وتفكير الطبقات الجديدة المثقفة والتي تعيش في بيئة عمت فيها ثقافة الغرب واستولت فيها حضارته، مما ولّد في المجتمع المسلم الجديد إشكاليات وتعقيدات فكرية وسلوكية، فركز على عرض تعاليم الدين وحقائقه في اسلوب وترتيب وتشكيل يساعد على قبوله واستساغته. فراجت تصانيفه وانتشرت في البلاد ونقلت إلى لغات شرقية وغربية كثيرة، هذه التصانيف تغطي مجالات متنوعة من العقيدة والحديث والتربية الإيمانية والكشف عن حقيقة شتى الفرق المنحرفة والحركات الهدّامة،

اما الكتاب الذي نحن بصدده فهو من اكثر تصانيفه انتشارا في لغات عدة، يتوخى المولف رحمه الله من خلاله عرض وشرح اسس تعاليم القران والحقائق الإيمانية والمبادي السلوكية والتربوية التي دعا إليها، فغطّى جميع ابواب الدين، وقد كان سماحته من الراسخين في العلم لحدّ لا يبلغه إلا القلائل من افذاذ العلماء، وامتاز بمعرفة كيفية تطبيقاته في الملابسات المختلفة، وقد كان معاصروه من امثال سماحة الشيخ ابي الحسن الندوي يعترفون له بهذه الميزة، فجاء هذا الكتاب هو الاخر يفسر الدين بدقة وتحليل عميق واسلوب موثر وعرض رائع سبيك. وقد نقله إلى العربية استاذنا الجليل اديب العربية الكبير فضيلة الدكتور سعيد الاعظمي، مدير دار العلوم ندوة العلماء. فجزاه الله وشكر له.

يسرّ القائمين على هذه الاكاديمية التذكارية للمولف العلامة المرحوم (مجمع الشيخ محمد منظور النعماني) ان يقوموا بطبع ونشر هذا الكتاب المبارك رجاء نفعه وان يكون رافعا لدرجات مولفه في عقباه. والله المسوول لمزيد التوفيق وهو المستعان وعليه التكلان.

خليل الرحمن سجاد النعماني
رئيس تحرير مجلة "الفرقان" الشهرية
ورئيس مجمع "النعماني العلمي"

كلمة المترجم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فمنذ أكثر من خمسة وأربعين عاماً وصل إلى أسرة مجلة "البعث الإسلامي" كتاب بقلم العالم الجليل فضيلة الشيخ محمد منظور النعماني (رحمه الله) منشئ مجلة "الفرقان" الشهرية ورئيس تحريرها آنذاك ، باللغة الأردية ، كان يدور حول دراسة القرآن وتعاليمه لحياة الإنسان ، ويبدو كأنه عصارة دراسته القرآنية وتأملاته فيما يتعلق بصفات الله تعالى المذكورة في القرآن الكريم ، وعقيدة التوحيد ، وما هو أهم مطالبات هذه العقيدة ، وما هي الآخرة في ضوء البراهين الإيمانية الساطعة والشبهات التي تُثار حولها مع الرد عليها بالدلائل القرآنية الدامغة ، وما أعده الله تعالى في الآخرة من جنات ونعيم لعباده المتقين ، ومن عذاب وشقاء للمنكرين الكافرين .

وقد تحدث المؤلف الكريم في ضوء آيات الكتاب عن النبوة والرسالة ، والضلالات التي وقعت فريستها فئة من منكري ختم النبوة على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، وقد تحدث عن التقوى ومعناها وآثارها وصفاتها وكونها قاعدة عظيمة صلبة لجميع الأعمال الصالحة مما يتعلق بذات الله تعالى وما له علاقة بالإنسان في مجالات حياته الفردية والجماعية ، كما قد تحدث في هذا الكتاب عن مكارم الأخلاق وحسن التعايش مع الآخرين ، وعن جميع محاسن الأخلاق من الصبر والأمانة والصدق والوفاء بالعهد والوعد ، والعدل والسماحة والإيثار ، والتوكل والقناعة ، والحياء والعفة والطهر والعفاف ، وعن أضداد هذه الخصال .

إنه لفت أنظار المسلمين إلى بذل السعي لكل ما أحل الله تعالى والفرار عن كل حرام مهما كان ، وركز على خطاب القرآن ومواعظه ، فمثلاً كيف

ينبغي أن يستعين المسلم بالصبر والصلاة أيام المحن والبلاء ، وكيف أن الله تبارك وتعالى يدعو عباده المؤمنين إلى الجنة والرحمة ، وما هي الأحكام والوصايا الأساسية للدين ، وكيف تكون عاقبة الكافرين والعصاة والمجرمين .

وما هي التوجيهات المهمة وأوامر الله تعالى للناس؟

وما هي الواجبات الخاصة بأمة الإسلام ومهمتها في الدنيا ، وكيف يبشر الله سبحانه عباده الصالحين إذا أصابتهم مصيبة ، وبأي طريق يستطيعون إحراز النجاح والسعادة في الآخرة ، وما هو السبيل نحو دخول الجنة والنعيم ، بيّن فضيلة المؤلف الجليل كل هذه المفاهيم والتوجيهات وجميع ما يحتاج إليه المسلم من التمييز بين ما هو من الأعمال لله تعالى وما فيه حظ للنفس وللشيطان في ضوء تأملاته القرآنية والخوض إلى مفاهيم القرآن أثناء تلاوته لكتاب الله تعالى وتأملاته فيه .

ومن ثم اتفق رأينا نحن (أنا ورئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي" الأستاذ السيد محمد الحسني — رحمه الله تعالى —) أن نقوم بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، ثم نشره في حلقات في أعداد المجلة تباعاً ، وقد توليت هذا العمل ، وقمت بترجمة الكتاب في حلقات متتابعة في أعداد مجلة البعث الإسلامي ، ابتداء من عدد رمضان لعام ١٣٨٩هـ ، ومع تمام الترجمة جمعت بكاملها في كتاب ، وسميته (القرآن يتحدث إليكم) ، وقدمته إلى نجل فضيلة المؤلف الجليل (رحمه الله تعالى) فضيلة الأخ الشيخ المربي خليل الرحمن سجاد النعماني الندوي ، رجاء أن يطلع عليه ويستشير والده الجليل رحمه الله وشقيقه الكبير الشيخ عتيق الرحمن السنبهلي حول نشر الكتاب باللغة العربية ، وانتظرت ثم تناسيت ، وظننت أن عملية النشر والطباعة ليست ميسورة لهذا الكتاب ، وكنت قد اقتنعت بما قدر الله تعالى ومضى على هذا العمل نحو ٤٥ عاماً .

وفجاءة ذكّرني الأخ العزيز الأستاذ محمد فرمان الندوي ، بأنه قام بإعداد الكتاب للطباعة بواسطة كتابته على الكمبيوتر ، وعرض علي الملازم كلها ، وطلب مني قراءتها وإعادة النظر عليها وتصحيحها إذا كانت فيها أخطاء مطبعية ، وهنالك لمست في نفسي سروراً وقوةً على ما طلب مني ، وقلت في نفسي : لعل الله سبحانه قدَّر للكتاب أن ينال طريقه إلى النشر والتوزيع ، لما فيه من فوائد قرآنية ومفاهيم سماوية ، وخاصة في العصر الذي نعيش فيه اليوم الذي هو أحوج شيئ إلى دراسة معاني القرآن الكريم والبحث فيه عن حلول للمشكلات الحضارية والتحديات المعاصرة في واقع الحياة والمجتمع .

أشكر فضيلة الأخ الجليل الشيخ خليل الرحمن سجاد النعماني الندوي الذي أكرم المترجم بتشجيعه له واسناد عمل الطباعة والنشر إلى الأكاديمية النعمانية ، بلكناؤ-(الهند) ، عسى أن يكون له قبول ، وعليه إقبال ، من الجهات العلمية والدعوية وفي أوساط المدارس الإسلامية ومراكز الدعوة والتفسير بمشيئة الله تعالى ، ولعل التأخير الذي حصل في إخراج هذا الكتاب بلباسه العربي ، سيكون باعثاً على خير كثير ، والله ولي التوفيق .

١٤٣٤/١١/٧هـ
٢٠١٣/٩/١٤م

كاتب هذه السطور
سعيد الأعظمي الندوي
رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي"
ندوة العلماء ، لكناؤ (الهند)

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، وسلام على عباده المرسلين ، أما بعد!

فهذه حقيقة لا يشوبها شيئ من التواضع والكلفة أن هذا العبد المتواضع لم يكتب بحثاً قرآنياً ولم يؤلف مؤلفاً خاصاً بالقرآن الكريم، فلا يحمل تخصصاً أو مهارة في علوم القرآن ، وإني أفهم معاني القرآن ومفاهيمه بأسلوب عام بسيط ، وإذا حالفني التوفيق أتلو القرآن بفهم ودراية ، وهذه نعمة من الله عليَّ عظيمة ، لكن أجل هذه النعم وأعظمها أن القلب يلين أحياناً عند تلاوته ، ويتأثر بآيات الرحمة والغضب تأثراً عظيماً ، فكان القرآن الكريم ونزوله من الله تعالى ككلام إلهي حقيقة ملموسة عندي ، فكما أن اللسان والذائقة يشعر بحلاوة شيئ أو ملاحته ، كذلك يدرك قلبي وقت تلاوته لذة كلام الله تعالى ، وأؤمن بأن القرآن كلام الله عز وجل ، فلا فرق عندي بين هذين الأمرين ، فليس كل منهما فكرياً واستدلالياً ، وأحمد لله على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

إن تأثر القلب بالقرآن ليس له وقت معين أو موسم من المواسم خاص ، لكن تتوافر هذه النعمة بحمد الله وفضله في شهر رمضان المبارك ، وإذا أكرم الله بها في وقت خاص ازداد فطرياً الشعور بعظمة تعليم القرآن ودعوته .

قبل سنوات كنت أتلو القرآن في شهر رمضان المبارك ، لا أتذكر أي موضع استرعى انتباهي ، وتأثر به قلبي ، واشتد في قلبي هذا الاتجاه أن

أبذل قصارى جهدي في إيصال رسالة وتعليم القرآن في أسلوب قرآني إلى عباد الله الذين لا يعرفونها ، فخطرت ببالي صورته العملية أن يُؤلف كتاب في قطع متوسط ، يُذكر فيه موضوعات الدعوة والتعليم القرآني ، بأسلوب يسهّل فهم ذلك للمسلمين وغير المسلمين جميعاً ، ولا يزاد فيه دليل أو بحث من المؤلف ، بل تذكر فيه تعاليم القرآن في أسلوب دعوي وتذكيري للقرآن ، وكلما كانت الحاجة إلى شرح وتفصيل يذكر بقدر الحاجة .

فعزمت على هذا العمل بتوفيق من الله تعالى ، ووضعت خطة تأليف هذا الكتاب ، وبدأت بجمع وانتقاء الآيات ، العمل الذي تم في رمضان المبارك ، ثم بقي عمل التأليف والترتيب ، وكنت أظن أنني إذا اشتغلت بهذا العمل أنجزته في ثلاثة أو أربعة شهور بإذن الله ، لكن لم أستطع أن أفرغ أربعة أيام متوالية لهذا العمل ، وبالعكس من ذلك وقع مراراً أنني كلما كتبت صفحتين أو ثلاث صفحات ما تمكنت من إعادة النظر فيها وزيادة مواد جديدة إليها ، ومرَّ عامان لم أنقطع إلى هذا العمل، ولكن الله سبحانه وتعالى منّ علي وتمّ تأليف وترتيب هذا الكتاب .

على كل ، فإن هذا الكتاب الآن بين يدي القراء بفضل الله وتوفيقه، بعد ما مرت بمراحل كثيرة ، في تأليفه وطبعه ، فإن أخطأت فهو مني ، وإن كان فيه مزية وحسن ، أو فائدة ونفع للناس فهو من الله تعالى ، فله الحمد والشكر .

وهنا أمور لابد من ذكرها بإيجاز :

١. معلوم أن القرآن للمسلمين وللناس جميعاً ، فقد راعيت وقت تأليف هذا الكتاب عقلية عامة الناس مع المسلمين ، فإني أشعر بالطبع بتوسعة نطاق الاستفادة من هذا الكتاب ، وإن هذا العاجز سيسعى لذلك بإذن الله ، لكن إذا عني أولو العلم بإيصاله إلى غير المسلمين فأرجو أصحاب الاهتمامات الدينية أن لا تفوتهم هذه الناحية المهمة ، وقد صدرت للكتاب طبعات إنجليزية وهندية .

٢. روعي في تفسير الآيات القرآنية ذكر مدلولها ومعناها .

٣. لا أدعي بأني استقصيت جميع جوانب رسالة القرآن وتعاليمه ، لكن أظن أن أهم جوانبه العملية تناولتها فيه ، وأرجو أن هذا سيكون نافعاً بإذن الله .

أرجو من القراء أن لا ينسوا مؤلفه في دعواتهم الصالحة ، وأن يوسع الله نطاق نفع هذا الكتاب في الخاصة والعامة ، لأن جل اعتمادي بعد رحمة الله تعالى على دعائهم .

والله ولي التوفيق

كتبه

محمد منظور النعماني

نظير آباد ، لكناؤ ، الهند

محرم الحرام ١٤٧٩هـ

يوليو ١٩٥٩م

نبذة من حياة

فضيلة الشيخ محمد منظور النعماني

العالم ، الداعية ، العارف بالله والمحقق

بقلم المترجم

فقد العالم الإسلامي في الهند علماً من أعلام العلم والدين والدعوة والفكر الإسلامي ، عشية ٢٦/من شهر ذي الحجة عام ١٤١٧هـ المصادف ٤/من شهر مايو ١٩٩٧م ، كانت له مواقف علمية ودعوية كثيرة مع سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي على الساحة الإسلامية الدعوية في الهند ، فقد كانا زميلي الدعوة و العلم والفكر ورفيقي العمل لمصلحة الإسلام والمسلمين ، إلى مدة طويلة تمتد على نحو ستة عقود من السنين ، من عام ١٩٣٨م إلى ١٩٩٧م ، ولكن رحمة الله تعالى استأثرت بالفقيد وكتبت له الرجعة إلى ربه راضياً مرضياً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

من أعلام الدعوة والعلم :

إنه فضيلة الشيخ الكبير محمد منظور النعماني – رحمه الله – عالم الهند الكبير وواحد من أعلام الدعوة وعلم الحديث والتأليف والتحقيق ، رزق عمراً طويلاً بلغ إلى أربعة وتسعين عاماً ، قضاه في العمل للإسلام والمسلمين ، وخدمة الدين والعلم ، وبث الوعي الإسلامي الصحيح على جميع المستويات ، وقد وفقه الله تعالى إلى تخليد آثاره العلمية والفكرية ، وتكوين مكتبة دينية إسلامية مستقلة بكتبه ومؤلفاته الجليلة التي بلغت إلى نحو مائة كتاب ، وبواسطة مجلته الدينية الراقية

الشهرية : "الفرقان" التي أصدرها في مقتبل شبابه ، وبث عن طريقها فكره الديني والعلمي ، وجعلها ذريعة للدعوة بالكتابة والقلم .

حساسية العلامة النعماني نحو قضايا المسلمين :

ولما أقضت مضاجع المسلمين الواعين الغيارى على الدين ، قضية التعليم العلماني في هذه البلاد والمناهج الدراسية التي وضعتها الحكومة العلمانية للجميع من غير استثناء ، وكانت تتضمن مواد سامة ضد العقيدة والإيمان ، قلق لذلك الشيخ النعماني ولبّى نداء الرجل الغيور القاضي عديل عباسي الذي وجه النداء إلى الجهات الإسلامية المسئولة في الهند للاحتجاج على المنهج الرسمي ، وطلب من الحكومة السماح بوضع منهج خاص بالطفل المسلم للمرحلة الابتدائية ، وعقد لهذا الغرض مؤتمراً عاماً في مدينة بستي في نهاية عام ١٩٦٠م دعا فيه علماء المسلمين وزعماءهم وقادتهم ، وكان في مقدمتهم فضيلة الشيخ محمد منظور النعماني وسماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وأجمعوا على تأسيس هيئة للتعليم الديني على مستوى الولاية أولاً ، وجعلوا مقرها الرئيسي في مدينة لكناؤ حيث نالت الهيئة الإشراف على برامجها وأعمالها من قبل الشيخين الجليلين ، وكان يقودها القاضي عديل عباسي رحمه الله بغاية من النشاط والجدية ، وهي لا تزال تعمل برئاسة سماحة العلامة الندوي ، وأمينها العام اليوم هو الرجل الفاضل الدكتور مسعود الحسن العثماني .

وفي بداية الستينيات حدثت اضطرابات طائفية هائلة في مدينة جمشيدفور وراوركيلا بولاية بيهار .(الهند) كانت تهدد وجود المسلمين

في هذه البلاد وتؤشر إلى أن عقلية القضاء على الوجود الإسلامي تسيطر على المجتمع الهندي ، وهي تعلن غيظها وحنقها ضد المسلمين ، وهنالك اضطرب الشيخ النعماني وعزم على تغيير هذه العقلية واستبدال العداوة بالألفة ، وقام هو وسماحة العلامة الندوي بجولة للمناطق المتضررة والمدن المنكوبة وأجريا لقاءات واسعة مع الجهات المسئولة والأشخاص البارزين بين الفئتين ، وقد تأسس نتيجة لهذه الجهود المخلصة المجلس الاستشاري للمسلمين الذي مثل جميع الطوائف والجماعات في الهند ، كان رئيسه يوم ذاك معالي الدكتور السيد محمود ، وزير الحكومة المركزية سابقاً ، وقام أعضاء المجلس بجولات واسعة في طول البلاد وعرضها بقيادة زعمائهم وعلمائهم فكان في مقدمتهم فضيلة الشيخ النعماني وسماحة العلامة الندوي .

عضويته لرابطة العالم الإسلامي :

هذا عدا السفرات والرحلات الدعوية والتربوية التي كانا يقومان بها معاً ، ومن بينها أسفار العلامة النعماني إلى الربوع المقدسة كعضو لرابطة العالم الإسلامي للحضور في دوراتها السنوية مع سماحة العلامة الندوي الذي كان قد اقترح اسمه لعضوية الرابطة التي وافقت عليه الرابطة بكل رحب وسعة ، ولاشك فإن ذلك كان شرفاً للأمة الإسلامية في الهند التي كان يمثلها هذان الرجلان العظيمان(الشيخ النعماني والعلامة الندوي) في هذه المؤسسة العالمية ، وما زال الشيخ النعماني عضو الرابطة إلى آخر أيام حياته .

صدعه بالحق :

إن الدور الذي قام به الفقيد في مجال الاهتمام بأمر المسلمين في بلاد الهند بوجه خاص ، وعلى المستوى العالمي بوجه عام يرفع شأنه ، ويقدم قدوة لجماعة العلماء وا لدعاة في كل مكان ، وله في هذا الموضوع مواقف محمودة كثيرة تدل على صدعه بالحق وإدلاء كلمة حق بكل صراحة من غير خوف لومة لائم ، لا يبالي في ذلك بصداقة أو قرابة ، ولا يعرف فيه انحيازاً لجانب دون جانب ، وتلك هي الصفة المتميزة التي عرف بها لدى الناس جميعاً ، والتي رفعت مكانته في أوساط العامة والخاصة جمعاء .

رسوخه في العلم :

أما رسوخه في العلم فقد تحدث عنه سماحة العلامة الندوي في كلمة عزاء ألقاها عقب وفاته فقال :

"لقد كان فضيلة الشيخ محمد منظور النعماني رحمه الله ، من أولئك الراسخين في العلم ، الذين لا يوجد لهم نظير في العصر الذي يتميز بالانحطاط في العلم والأخلاق والتوسع العقلي ، وكثرة التحركات من كل نوع ، وتزاحم الأعمال المنوعة ، مما لا يترك فرصة للحصول على الرسوخ في العلم ، ولكن الذي يعرف الفقيد الغالي عن كثب ، يطلع على أنه كان من علماء الهند الممتازين المعدودين الذين كانوا راسخين في العلوم الإسلامية ، وليس ذلك أمراً هيناً ، ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم" .

حميته الدينية :

وأكرمه الله تعالى بالحمية الدينية التي أقلقت باله من أجل القضايا والمشكلات التي تحيط بالإسلام والمسلمين والعالم الإسلامي ، فكان دائم التفكير في هذا الجانب الحساس ومرهف الشعور بما يواجهه المسلمون ويعيشونه من هموم وأحزان ، فكان كبير الاهتمام بإيجاد الطرق التي تنقذ الأمة الإسلامية من هذه المعاناة والمواجهة التي تضيق عليهم الخناق ، ويستشير في ذلك رفيقه الجليل سماحة العلامة الندوي ويتبادل معه الآراء ، ثم يتفق معه على طريقة عملية يباشرها تحقيقاً للرؤية التي يصطنعها من خلال الواقع المعاش .

وقد صرح سماحة العلامة الندوي بهذه الحمية الدينية التي كانت ميزة الشيخ النعماني رحمه الله الثانية ، في نفس الكلمة قائلاً :

"إن الميزة الثانية التي أكرم الله بها الفقيد رحمه الله ، هي حميته الدينية ، تلك الجوهرة النفيسة التي لا يتمتع بها إلا قليل من الناس ، فكان يقلق ويضطرب ويتحرق ألماً لما يحل بالمسلمين من أزمات ونكبات ، وما يحيط بهم من أخطار وما يهددهم من ظروف مضادة تكاد تقضي على وجودهم ، لقد كان تفكيره واضحاً حول إقامة المسلمين في الهند بعد تقسيم البلاد وتأسيس باكستان ، وكان مخطط مستقبل المسلمين في غاية من الوضوح في ذهنه ، ذلك لأنه كان يتمتع بالحمية الدينية الخالصة دون أن تنقصها أو تضعفها كثرة التجارب وزيادة المعلومات ، أو ظروف الحياة وأوضاع المجتمع ، بل زادته الأيام غيرة على الدين وتعاليمه وإيماناً وثقة بوعود النصر من عند الله .

صفاته :

كان في غاية من التواضع والسذاجة والورع ، مع علو كعبه في العلوم الإسلامية وسمو مكانته في فهم الدين واتباع السنة ، والجمع بين حسنتي الدين والدنيا بالاتزان ، كان يكلم الناس على قدر عقولهم ويعطي كل ذي حق حقه في إبداء رأيه وأخذ مكانته من الحياة والمجتمع ، يكرم الضيوف ويوقرهم ، ويرحم الصغار والضعفاء ويعطف عليهم ، وكانت له في التربية طريقة خاصة يتناول بها أولاده وتلاميذه فيترعرعون على خلال طيبة ويغارون على تعاليم الدين ، ويخلصون لله في جميع شؤون الحياة دون أن يفوت نصيبهم من الدنيا ، كان رقيق القلب ، وقافاً عند آيات الكتاب ، بكاءً أمام ربه في قيام الليل ، ومناجياً مع ربه في الخلوات ، داعياً إلى الله بالقول والعمل وفي السر والعلن ، يعيش حياة منظمة بتوزيع أوقاته للأعمال بشيء كثير من الدقة .

مؤلفاته :

أقعدته الشيخوخة والأمراض عن النشاط والقوة منذ مدة طويلة ، ولكنه كان يمارس عمل التأليف بقدر ما يمكنه ، ولم يتوقف عن الإفادة ما لم يفقد رشده في أيامه الأخيرة التي قضاها في المستشفى في شبه غيبوبة ، لقد وفقه الله تعالى لتأليف كتب دينية كثيرة تتراوح ما بين تسعين ومائة كتاب ، من أهمها كتابه في شرح أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مما يتعلق بالحياة والمجتمع باسم معارف الحديث ، في ثمانية مجلدات ، وكتابه الشهير باسم : "ما هو الإسلام" الذي قدم عن طريقه تعريفاً بالإسلام إلى كل طبقة وفئة من الناس ، نال إعجاباً وقبولاً كبيراً وتكررت طبعاته

حتى بلغت إلى أكثر من ٢٠/طبعة ، وكذلك كتابه القيم باسم : "قرآن آب سى كيا كهتا هى" – القرآن يتحدث إليكم – .

أنجاله :

خلف الشيخ رحمه الله مكتبة إسلامية لمؤلفاته ، وأربعة أنجال : فضيلة الشيخ عتيق الرحمن ، والأستاذ حفيظ الرحمن ، والشيخ خليل الرحمن سجاد النعماني الندوي ، والشيخ محمد حسان الندوي ، وبنتين مثقفتين بالثقافة الإسلامية ، وأسرة حافلة عامرة بالأحفاد والأقرباء .

صلتي بالشيخ النعماني :

عرفت الراحل الكريم أول ما عرفته يوم كنت طالباً في مدرسة مفتاح العلوم بمدينة مئو ، حينما زارها في إحدى المناسبات في الأربعينيات الميلادية ، وقد كانت له صلات بالمسئولين عن المدرسة ، وعلى رأسهم المحدث الجليل العلامة الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي (رحمه الله تعالى) صاحب المؤلفات القيمة والتحقيقات النادرة في فن الحديث الشريف ، والرجال ، ولما أتيت إلى جامعة ندوة العلماء في بداية الخمسينيات لدراسة الأدب العربي والتحقت بمرحلة التخصص في الأدب العربي بجامعة ندوة العلماء ، رأيته عن كثب ، وكنت أحضر الاجتماع الذي كان يعقد كل مساء الخميس بجامع دار العلوم لندوة العلماء تنظمه جماعة الدعوة والتبليغ ، ويلقي فيه الشيخ النعماني كلمات دينية ذات تأثير عميق ، وفي الاجتماع الذي كان يعقد في مركز الدعوة والتبليغ في البلد حيث كان يقيم الشيخ مع عائلته ، وسماحة العلامة الندوي يقيم بجواره في الجانب الشمالي للمركز ، وكنت أزوره كل يوم وأستفيد من مجالسه ، والعلامة النعماني يشاركه في جميع أعماله الدعوية ونشاطاته

الفكرية ، وحتى على مائدة الطعام والإفطار ، ولم يكن يوم ذاك عدد الزائرين من طلاب الندوة إلا قليلاً جداً ، فكنت أنا بدوري أنتهز الفرصة للاستفادة من أحاديثهما ومجالسهما ، والكلمات التي كانا يلقيانها في الاجتماعات الدعوية والمناسبات الدينية ، وخاصة من درس القرآن الذي كان يلقيه سماحة العلامة الندوي مساء كل أحد بعد صلاة المغرب في مسجد المركز .

كنت أرى ذلك الحب الخالص الذي كانا يتبادلانه ، والثقة التي كانت تغمر جوانبهما في كل حين ، فما كانا يبتّان في موضوع أو قضية إلا بالتشاور ، وطالما كانا يسافران معاً بروح واحدة وبدافع من التعاون على البر والتقوى ، وفي سبيل الدعوة والتربية ، وكانت تستغرق هذه الرحلات الدينية أياماً وأسابيع .

رحمه الله رحمة واسعة وغفر له زلاته وأدخله فسيح جناته ، وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان : "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي" [الفجر : ٢٧- ٣٠] .

الباب الأول

العقائد

الإيمان بالله أساس عقيدتنا

لا يقوم أساس الدين والعقيدة إلا على الاعتقاد بوجود خالق للكون والإنسان ، يدبر أمور الكائنات كلها باذنه ، فإن كان هناك من لا يعترف بهذا الأساس فالدين عنده أوهام وأشكال اخترعتها طبقة من سفهاء الناس .

ولذلك تحتل قضية وجود الخالق المحل الأول الأساسي في الدين ، ولا توجه دعوة الدين إلا إلى الذين يعترفون بهذا الأساس قبل كل شيء، ولكن الحقيقة أن الاعتقاد بوجود ذات الله شيئ طبيعي كالاعتقاد بوجود الإنسان نفسه ، فلا يحتاج إلى بينة أو برهان ، ولقد كان عامة سكان المعمورة يؤمنون بهذا الأساس ، حتى في هذا العصر الذي يُعرف بالعصر المادي نجد أغلبية الناس معترفة بوجود الله ، ولأجل ذلك لم يتعرض القرآن الكريم مباشرة للبحث في هذا الموضوع في سياق دعوته ، غير أنه برهن على فكرة وجود الخالق بإشارات لطيفة تكفي لغرس فكرة وجود الله لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولكن ثمة ما يجب أن نفهمه أولاً ، وهو أن القرآن لا يعتمد في الإقناع بوجود الله والحقائق الإيمانية الأخرى على الدلائل المنطقية والمناقشة الفلسفية التي تفحم المخاطب ، وإن كان لم يقتنع قلبه وضميره ، بل إن منهج القرآن أنه يخاطب الفطرة الإنسانية السليمة ويطالب منها التفكير في الكون الذي يحل منه الإنسان كجزء صغير ، فإن هذا التفكير يكشف القناع عن وجه الحقيقة ويفتح عليه آفاقاً من الآيات التي توجه اليقين إلي قلب الإنسان ، اقرأوا في هذا السياق قول الله تعالى : "إِنَّ فِي

خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" [البقرة : ١٦٤].

وبعد ما يشير القرآن في هذه الآية إلى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ونظام الفلك التي تجرى في البحر والسحاب المسخر والمطر والرياح ونتائجها وآثارها ، يطلب التفكير في هذه الآيات البينات التي تشهد بلسان الحال أنها لم توجد بنفسها ، بل إن لها خالقاً قديراً يملك كل شيئ ، وقد جاء في سورة الأنعام : "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ" [الأنعام : ٩٥].

يستلفت القرآن نظر الإنسان إلى الحب والنوى كيف يفلقهما الله سبحانه من باطن الأرض ، بالرغم من أنهما لا يتمتعان بنعمة الشعور كما أن الأرض ليست فيها قوة إرادة ، بل كل ذلك مما لا روح فيه ، ولكن يداً خفية تعمل في باطن الأرض مدة أيام فتفلق الحب والنوى وتنبت فيها جذوراً رقيقة تبدو على وجه الأرض من طيها ، ففكروا من الذي منح الحب والنوى هذه الحياة الخضراء الزاهية ووضع في الأرض والتراب هذه المؤهلات ، وكيف انفلقت هذه الجذور الرقيقة الناعمة عن باطن التراب ، هل يمكن أن يتم كل ذلك بنفسه دون أن تكون هناك قوة خارقة لا تدركها الأبصار ، كلا "إن الله فالق الحب والنوى" .

وإن هذا العمل لا ينحصر في الحب والنوى فحسب ، فكم من ميت يخرجه من الحي ، وحي يخرجه من الميت ، فإنكم تجربون ذلك دائماً ، مثلا

الفراخ الحي يخرج من البيض الميتة ، والمواد الميتة تخرج من الأحياء ، إنها آيات بينات لقدرة الله فأنى تؤفكون ، يقول القرآن في سورة الرعد : "وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" [الرعد : ٤].

القرآن يتحدث إلى الإنسان ويسترعي انتباهه إلى الأرض التي يمشي ويزرع فيها ليفكر فيما أودع الله فيها من قطع متجاورات ، ربما يختلف بعضها عن بعض في زيادة الإنبات وقلته ، فمثلاً يصلح بعض منها لزرع القمح وآخر للقطن أو قصب السكر ، وثالث لزراعة العنب ، ورابع لزرع الحبوب ، وخامس لشجر النخيل الذي هو صنوان وغير صنوان يُسقى بماء واحد ، ويتنفس في هواء واحد ، وشمس واحدة ، ولكنه متباين الأشكال والألوان مختلف الأكل .

فهل هذا التباين والاختلاف وجد بنفسه ، بدون أن تعمل فيه قدرة إلهية ، كلا ! فإن في اختلاف الأشكال والألوان واللذات والأكل لآيات لأولى الأبصار ، تهديهم إلى مصدر القوة والحكمة الذي يصدر منه كل هذه العجائب والمعجزات : "فَلْيَنظُرِ الإنسان إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا" [عبس : ٣١].

فليتأمل الإنسان الذي يتغذى من هذه الأغذية النظيفة ، من الذي يهيئ له هذه الأشياء ويخلق له هذه الأطعمة اللذيذة والفواكه ، والحبوب والعنب والقضب التي تأكلها الأنعام ، ومن الذي يصب الماء وينزله من

السماء وكيف ينفلق الحب والنوى عن زروع وفواكه وطعام ، ومن الذي يمهد الأرض ويفلق سطح الأرض للحبوب المبذورة تحت التراب ، إن الإنسان إذا نظر طعامه وحده وهو يطلب الحقيقة فلا شك أن الحقيقة تنكشف عليه بوضوح ، ويفوز بعلم خالق هذا الطعام وقدرته وحكمته ، يقول الله سبحانه في سورة النحل : "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ" [النحل : ٦٦]

القرآن يؤكد للإنسان أن يتأمل في الأنعام التي يتمتع بلبنها ، فإن في بطون هذه الأنعام شرايين من دم ، وأمعاء مليئة بصفة دائمة بالفرث ولا تمر عليها لمحة إلا وفى جسمها من الدم القاني والفرث النجس مقدار كبير، غير أنه يخرج من بين هذا الفرث والدم لبن خالص لا يحمل ذرة من الدم ولا رائحة من الفرث ، وإنما هو سائغ لذيذ للشاربين ، هذا ما تشاهده أنت أيها الإنسان بأم عينك دائماً فانظر من خلق هذا اللبن ، هل خلقته الأنعام نفسها ، أو أن العقل البشري هو الذي أوحى إلى الإنسان بصنع معمل اللبن في بطون هذه الأنعام؟ لا وكلا ، وإنما هو من صنع ذلك العليم الخبير الذي خلقك وخلق الكائنات كلها .

كما أشار القرآن في آية أخرى إلى وجود الله كاستفهام بليغ ، وما أبلغ الكلام وأشفى للنفس! يقول : "أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" [إبراهيم : ١٠] ، وقد فتح القرآن بهذا الاستفهام آفاق السماوات والأرض على الإنسان ليفكر فيها ويرد على هذا السؤال ، وكل إنسان له بصر يرى السماء والشمس والقمر والنجوم ، وما فيها من أضواء أو حرارة وبرودة ، إنه يجد الأرض تحت قدميه وفيها من جنات وزروع يتمتع

بها ويأكل من الفواكه والحبوب التي يجنيها من تلك الجنات والزروع . إنه يتمتع من الأزهار والرياحين ويشم رائحتها اللطيفة الطيبة ، وينتفع بكثير مما تنبته الأرض ، ولكنه لا يستطيع أن يفكر أن هذه الأشياء كلها وجدت بنفسها مادام يتمتع بالعقل ، كما أنه لا يستطيع أن يعتقد أنها وجدت بفضل إنسان نابغة في الفلسفة أو الصناعة ، وإنما العقل يلجئه دائماً إلى أن يؤمن بخالق عظيم خلع على هذه الأشياء لباس الوجود ، يقول الله تعالى : "وفى الأرض آيات للمؤقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون" فقد قيل للإنسان أن لا يتغافل عن التفكير في الآيات والعجائب التي أودعها الله سبحانه في نفسه عدا ما في الكون من آيات بينات ، فلو استعمل البصيرة وفكر فيما أكرمه الله به من حياة نظام للحياة امتلأ قلبه بالإيمان الأكيد واليقين الراسخ .

والحقيقة أن الإنسان إذا فكر في ذاته ومجرد أعضائه ونظام حياته لم يعد لديه شك في فاطر هذا الكون ، فليفكر الإنسان في بدايته ، من الذي صوره في بطن أمه؟ وأودع في قالبه الروح ، ثم لينظر من الذي خلق له هذه الحوائج والمطالب ليقضي بها حياته؟ ووضع في عينه النور وفي أذنه السمع ، وفي غدود أنفه قوة الشم ، وفى لسانه قوة الذوق التي لا يجد لذة الطعام والشراب بدونها ، ومن الذي أكرمه بالنطق؟ هل أحسنت إليه بكل ذلك أمه أو أبوه ، أو طبيب نطاسي قام بهذه المنحة ، أو أنه هو بنفسه استطاع الحصول على جميع هذه النعم ؟!

ومما لا شك فيه أن الأمر ليس كذلك ، وما أخطأ الظن أن يعتقد الإنسان أنه ولد هكذا بحكم المصادفة دون أن تكون هناك قوة تشرف على صنعه في الرحم .

فالحقيقة إذن التي لا تمارى فيها هي أن الله العليم الحكيم هو خالق الإنسان ، وهو الذي خلع عليه لباس الوجود والإنسانية ، ومنّ عليه بهذه النعم ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

الله جل جلاله في ضوء صفاته

لقد علمنا أن الإيمان بوجود الإله أمر طبيعي في الإنسان وعلم بديهي لا غموض فيه ، أما العلم بصفات ذلك الإله فبالرغم من أن معرفتها لازمة لكل مسلم يريد أن يعرف ربه حق المعرفة ويطلع على نوعية صلته بالله ، يعجز الإنسان عن إدراكها بنفسه ، ولذلك نال موضوع الصفات أهمية كبرى من بين الأمور التي يجب على الإنسان — المسلم — أن يستفيد علمها من الكتاب والسنة .

إن العقيدة بوجود الإله كانت شائعة بين الأمم عند نزول القرآن ، غير أن المفهوم الصحيح لصفات الإله لم يكن معروفاً في ذلك الحين ، بل وإنما كان الناس في ضلال كبير في تقدير هذا المفهوم ، ولا تزال الديانات القديمة وأتباعها وكتبها الأساسية موجودة إلى هذا العصر ، فليرجع إليها من شاء أن يطلع على المعتقدات المنحرفة بمفهوم الصفات الالهية ، وما المذاهب الهدامة والفلسفات الضالة وأنصارها اليوم إلا دليلاً على وجود الاتجاهات المنحرفة حول صفات الله تعالى .

وقد تناول القرآن الكريم موضوع الصفات الالهية من بين القضايا الأخرى بالإصلاح والإيضاح ، ولكي ندرك قيمة التوجيهات القرآنية حول هذا الموضوع ونفهمها فهما جيداً يجب أن نعرف مدى الضلالات والانحرافات التي أصيبت بها الأمم في صفات الله تعالى ، وكيف كان مفهوم الإله لدى هذه الأمم ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى تاريخ الديانات القديمة ، ونحن نكتفي هنا بإيراد بعض الضلالات الأساسية التي وجدت في الأمم القائلة بالله عند نزول القرآن .

لقد كانت أمم وشعوب كثيرة تعتقد بوجود شركاء ووزراء لله تعالى وتقول : إنهم هم الذين يقومون بكل ما يريده الله ، ويأمرهم به ، ولا تصدر الأمور منه مباشرة ، بل إنه فوضها إلى المقربين من الشخصيات والرجال بما فيها الأصنام والآلهة الكاذبة ، شأن الملوك والحكام في الدنيا الذين يصدرون الأمور والتعليمات عن طريق وزرائهم ولا يقعون فيها بأنفسهم ، فقد كانت هذه الأمم تستيقن أن هؤلاء الآلهة إنما ينعمون على الذين يرضونهم ويحبونهم بنعم ورفاهية ، ويأخذون من يسخطون عليهم ، ويوجهون إليهم الشقاء والذلة ، ولذلك فإن مصاير الناس بيد الشركاء والآلهة الكاذبة ، لا بيد الله . "سبحانه وتعالى عما يشركون" .

كما كان يظن بعض الناس أن لله خاصة من الناس يتخذهم أصدقاء، وإذا ألحوا على شيئ يضطر إلى قبول إلحاحهم تحقيقاً لرغبتهم ، مثل الملوك والأمراء الذين يتخذون خاصة لأنفسهم ويخضعون أمامهم في كل أمر لامحالة بحكم الصلة العميقة للحب والصداقة التي تربطهم بهم .

وكانت بعض الأمم تتصور وجود الله في أشكال مادية ، وصفات مادية ، وتعتقد أن الأحوال الطبيعية للحزن والفرح والألم والراحة تتوارد على الله مثل الإنسان ، وهي تؤثر على الله بمثل ما تؤثر على الإنسان ، وتصدر منه أعمال كما تصدر من الإنسان تحت ضغط التأثيرات الخارجية ، كان عامة المشركين الوثنيين يحملون هذه المفاهيم الخاطئة عن الله ، التي كانت أساساً لشركهم .

كما أن بعض الأمم كانت تزعم أن الله حاكم مطلق ، يملؤه القهر والغضب والجلال والجبروت ، ليس عنده قوانين ولا دستور ، وإنما

يصب غيظه إذا غضب على الناس ويأخذهم بالهلاك والدمار والظلم والفساد ولا يرحم أحداً بل يشفي غيظه لا يراعي في ذلك إلاً ولا ذمةً .

إذا تدبرنا هذا الموضوع بدا لنا أن أساس جميع هذه الضلالات وما عداها من ضلالات وانحرافات لها صلة بعقيدة الصفات هو أن الحكم والملوكية كانت لهما قيمة كبيرة في أعين الناس ، وكان الملوك هم الذين يتمتعون بالشخصية الكبرى التي لا تعدلها شخصية ولا منزلة ، ولأجل ذلك فإن الصفات التي كان يحملها الملوك قد تصورها كذلك في ذات الله تعالى ، إن إحلال الألوهية محل الملوكية أسفر عن نتيجة تحديد مفهوم الإله في نطاق القهر والغضب والجلال والجبروت بوجه عام ، وهذه الصفات لم تكن تستعمل إلا في معنى الخوف ومفهوم التحذير .

وقد ضغط سيدنا عيسى عليه السلام على صفة الرحمة في ذات الله سبحانه وتعالى لمجرد إصلاح هذا الخطأ قبل نزول القرآن بقرون ، واستخدم لإساغة هذا الأمر مثال الحب الأبوي ، ولكن الأمة النصرانية حينما زاغت وحرفت تعاليم "المسيحية" أوجدت عقيدة الابن ، وما كانت هذه العقيدة إلا نتيجة للتصور الخاطيء الذي نشأ فيهم حول صفات الله تعالى ، وبالجملة فقد كانت الأمم والشعوب في العالم قد وقعت في مثل هذه الضلالات والأخطاء قبل نزول القرآن بوجه عام ، فلما جاء القرآن هداهم أول ما هداهم إلى الاعتراف بربوبية الله تعالى ، واحتوت سورة الفاتحة قبل كل شيئ على صفات الرب سبحانه ، فقال : "الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين" .

فالصفة الأولى وهي صفات الربوبية أفادت الناس بأن صلة الكون بالله تعالى ليس في خلقه وأمره فقط ، بل أنه تكفل له بالتربية في كل شيئ

حتى الشجرة التي تتغذى بالماء والتراب ، والطفل الذي يتغذى بثدي أمه إنما هي آية من آيات الربوبية ، والمربي الرزاق في الحقيقة هو الله تعالى ، فإنه سبحانه لم يكتف بالخلق وتفويض أمر التربية والكفالة إلى غيره ، ولكنه خلق الكون وتكفل له الرزق والتربية ، وكل ذرة من هذا الكون تتمتع بربوبية الله تعالى مباشرة .

أما الصفة الثانية "الرحمن الرحيم" فقد نفت ذلك الظن الخاطيء الذي يحصر ذات الله سبحانه في القهر والبطش والغلبة فحسب ، وأكدت للناس أن الله ذو رحمة واسعة وفضل عظيم ، إذ ليس خلقُ الكون والتكفّلُ بالتربية وتهيئة الحاجات والمطالب للناس إلا رمزاً لرحمته ، وقد وسعت هذه الرحمة كل شيئ إلى حد لم تكف للتعبير عنه كلمة "الرحمن" فأردفها بكلمة "الرحيم" .

والصفة الثالثة وهي "مالك يوم الدين" قد أكدت للناس أن الله سبحانه مع ربوبيته ورحمته عادل في غاية العدل ، ويتجلى هذا العدل في اليوم الذي يختص بالعدل والحساب وهو يوم الدين ، فكأنه تعالى أنذر الناس بما إذا كان هناك من يظن أن الله الرب الرحيم سوف لا يحاسب العباد ولا يؤاخذهم ، وإنما هو عادل لا يدع المجرمين والظالمين إلا ويأخذهم بالعقاب ، وهذا العقاب لا ينافي رحمته وربوبيته كما أن الثواب للمؤمنين الصادقين لا ينافي الرحمة والربوبية ، بل كل ذلك عين الرحمة والعدل ، وستبدو هذه الصفة في عهد يختص بالمجازاة والثواب والعقاب ولا تكون هناك عبادة ولا الاكتساب معيشة ، ولذلك سماه بيوم الدين .

إن هذه الكلمات الثلاث الوجيزة التي نطق بها القرآن عن صفات الله تعالى ، إذا تأملنا فيها ونزلنا إلى أعماقها لكفى ذلك برهاناً على صفات الله ومعرفته بها ، ولكن القرآن بحكم كونه آخر كتاب لم يتبع في مثل هذا الموضوع الكفاية والإيجاز ، بل إنه كرر ذلك في مواطن كثيرة لا يأتي عليها الحصر ، ونقدم هنا بعض الآيات التي تنير هذا الموضوع ، ولكي يسهل على القارئ فهم هذه الصفات نفصل كل صفة بعنوان مستقل .

إحاطة الله بكل شيئ

٠١ يتحدث القرآن عن صفة علم الله تعالى الذي يحيط بكل شيئ علماً ، صغيراً كان أو كبيراً ، ظاهراً كان أم خفياً : "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ" [آل عمران : ٥] ، وقد جاءت آية أخرى في نفس هذا المعنى بشيئ من الزيادة في سورة الأنعام : "وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ" [الأنعام : ٣] ، وقال : "عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ" [الأنعام : ٧٣] ، وتضمنت نفس هذا المعنى آية أخرى في سورة القصص : "وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" وفي سورة يونس : "وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ" [الآية : ٦١] وقال في سورة البقرة وهو يذكر اتصاله بعباده : "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ" [الآية : ١٨٦] ، "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ" [ق : ١٦] وذكر هذا المعنى في سورة المجادلة بأسلوب آخر فقال : "مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ

وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا" .

وقال في سورة النساء وهو يتحدث عن أولئك الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله : "يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ" [الآية : ١٠٨] ، وقد تعرض القرآن لوصفه سبحانه وتعالى بالعليم والخبير والسميع والبصير والشهيد والمحيط في آيات أخرى كثيرة تحتوي كلها على معنى إحاطة الله سبحانه بعلم الأشياء كلها ، ولا يخفى عليه شيئ في الأرض ولا في السماء .

٢ .صفة قدرة الله على كل شيئ .

اتخذ القرآن أساليب متعددة لذكر صفة القدرة لله تعالى وكمال غلبته على كل شيئ ، مثل صفة علمه المحيط والكلّي ، وذكر هذه الصفة في مواطن كثيرة لا يسع كل الناس أن يحصوها ، فمثلا "إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْئٍ قَدِيرٌ" ، "وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْئٍ قَدِيرٌ" . هذه آيات كررها القرآن في مناسبات مختلفة كثيرة ، كما عبر عن كمال قدرته بأساليب أخرى ، اقرأوا الآيات التالية :

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ" [إبراهيم : ١٩- ٢٠] ، وفي سورة النساء هكذا : "وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآَخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا"وفي سورة الأنعام : "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ" [الآية : ٤٦] وقال في سورة يس بعد ذكر آيات من قدرته : "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ

كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" [الآية : ٨٢- ٨٣] ، وفي سورة فاطر : "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا" [الآية : ٤٤] .

وعلى كل ، فإن من بين الصفات الإلهية التي يريد القرآن أن يوجه عقول الناس إليها ، والتي يخصها بالتعريف والذكر صفة تحتوي على معنى قدرته الواسعة وغلبته العظيمة ، وأنه يفعل ما يشاء بدون أن يحتاج في تحقيق إرادته إلى أي نوع من المدد والعون ، كما أنه غني عن الوسائل والأسباب ، وإنما إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون .

٣ . صفات الخلق والأمر والرزق

إن القرآن يضغط بالتأكيد والتفصيل على موضوع الخلق والأمر ، وأن الكون كله خاضع لأمره وهو وحده يدبر نظامه ، وكذلك الحياة والموت وكل ما يحتاج إليه الإنسان من رزق يتكفل الله بتهيئته فلا أحد يملك الحياة والموت والرزق ، وهو الذي يقدر ما يشاء لمن يشاء ، ويمنع من يشاء ما يشاء ، هذا الموضوع يحيط بجزء كبير من القرآن ، ولكن تُذكر فيما يأتي عدة آيات تلقي الضوء عليه ، ففي سورة الأعراف : "أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" [الآية : ٥٤] ، وفي سورة الزمر : "اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" [الآية : ٦٢] .

وقال في سورة الروم يخاطب المشركين : "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" [الآية : ٤٠] ، وفي سورة الشورى : "فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" [الآية : ١١- ١٢] ، وفي سورة إبراهيم : "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" [الآية : ٣٢- ٣٤].

وقال في سورة المؤمنون : "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ" [الآية : ٧٨- ٨٠] ، وفي سورة المؤمن : "اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" [الآية : ٦٤] ، وفي سورة الأعراف : "قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ" وفي سورة الجاثية : "فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [الآية : ٣٦- ٣٧].

٤ . الحكم لله وهو مالك الكائنات والأكوان كلها

اعتنى القرآن الكريم بهذا المعنى كذلك ، وذكره في آيات كثيرة لا يكاد يأتي عليها الحصر ، ونحن نكتفي هنا بإيراد بعض الآيات في هذا المعنى كنموذج : "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [آل عمران : ٢٦] وجاء في سورة التوبة : "إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ" [الآية : ١١٦] وفي سورة المائدة : "لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [الآية : ١٢٠].

وذكر في سورة الشورى ضمن بيان الملك لله وكبريائه : "لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ" [الآية : ٤٩- ٥٠] وفي سورة المؤمنون : "فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ" [الآية : ١١٦] وبعد ما تعرض القرآن لذكر شأن الله تعالى ومدى إنعامه على عباده بتفصيل قال في سورة فاطر : "ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ" [الآية : ١٣- ١٧] وقال في سورة الفرقان ضمن الحديث عن الملك والحكم لله وحده ، وتنزيه شأنه من ولد أو ما يشبه الولد : "الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ" [الآية : ٢].

٥ . الأمر كله لله ، وليس لأحد أن يتصرف فيه شيئاً

وقد اتخذ القرآن أسلوباً سلبياً في سياق ذكر الملك والحكم لله ، فذكر أن الله لا يشاركه أحد في إرادته وقدرته ، وليس لأحد أن يتصرف في أي أمر إلا بإذنه ، فقال في سورة الأحزاب : "قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ

نَصِيرًا" [الآية : ١٧] ، وفي سورة فاطر : "مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [الآية : ٢] ، وقال في سورة الأنعام : "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ" [الآية : ٤٦] ، وورد في سورة الملك : "أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ" [الآية : ٢١] ، وقال : "أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ" [الآية : ٣٠].

انحراف الأمم عن تصور الإله الصادق

تقدم فيما أسلفنا من البحث في هذا الموضوع أن كثيراً من الأمم والشعوب أخطأت الظن في تصور الإله ، فكانت تعتقد أنه ملك جبار يحيط به من الغضب والجلال ما لا يمكن معه إرضاؤه ولا التقرب إليه ، ويعجز كل إنسان عن كسب رأفته وجلب رحمته ، أما المذنبون فليس لهم عنده إلا اللعنة والغضب والعذاب الأليم ، وإذا وجد فيه شيئ من الرأفة والرحمة فهو يختص بأسرة أو سلالة أو قوم ، دون أن يتعدى ذلك إلى عامة الناس .

والواقع أن هذا الظن الخاطئ والانحراف تسبب الشرك لأمم كثيرة ، إنها وجدت نفسها تحت وطأة الذنوب والآثام وظنت العودة إلى حياة الإيمان والتقوى نوعاً عن المحال ، فقطعت أملها عن رحمة الله ومغفرته بحكم تصورها الخاطئ عن الله ، وهنالك استحوذ عليها الشيطان وأكد لها أن الرحمة والمغفرة لا يمكن الحصول عليهما إلا عن طريق التزلف إلى تلك الشخصيات التي يحبها الله ، وقد منحها بعض الأقساط من قدرته وحكمته ، وهي لا تتصف بصفات الجلال والغضب مثله ، فمن شاء منكم أن ينجو من عذاب الله ونقمته فليتمسك بأذيال هؤلاء الناس البررة ، ويطلب رضاهم .

وكان ذلك أيسر طريق اصطنعته هذه الأمم المنحرفة ، وانصرفت عن الله إلى هؤلآء الناس بعد ما قطعت عنه رجاءها واتصلت بحبال الشيطان واتخذته هادياً وناصحاً ، فهداها إلى تقديس هؤلآء الرجال ،

عسى أن يكون ذلك سبباً لرخائها ورفاهيتها وهدوئها وطمأنينتها ، وسوف لا يؤاخذها الله بعذاب أو عقاب . بفضل صلتها بهم .

إن دراسة أحوال معظم الأمم المشركة وأفكارها تبين لنا أن السبب الأساسي لوقوعها فريسة الشرك هو جهلها بصفات الرأفة والرحمة والمغفرة والجود والسخاء في الله تعالى ، وعلمها بمجرد صفات القهر والغضب والأخذ والبطش فيه ، حتى استيأست هذه الأمم عن أي رحمة من الله ، ووقعت في شرَك الشيطان الذي هداها إلى تقديس الإنسان وتسبيحه وعبادته ، ولو أنها كانت على علم برحمة الله الواسعة وصفات رحمته ومغفرته لم تقع فيما وقعت فيه من الشرك وعبادة غير الله .

ولأجل ذلك فإن القرآن الكريم يتصدى لذكر صفات الرحمة والرأفة لله في تفصيل وتكرار ، ويؤكد أن الله أرأف بعباده وأرحم لهم من كل شيئ ، فإن تلاوة القرآن تكشف لنا مدى ما فيه من آيات تنطوي على هذه المعاني التي يصعب إحصاؤها ، حتى إن "بسم الله الرحمن الرحيم" التي هي أول ما يبدأ به القرآن الكريم تحتوي على صفة الرحمة بتأكيد وتكرار ومبالغة ، كما أن أولى الآيات لأول السورة تشتمل على ذكر صفات الربوبية والرحمة وتعريفها إلى العباد ، يقول الله سبحانه : "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" [الفاتحة : ٢- ٣] .

لنقرأ بعض الآيات الواردة في هذا الموضوع بعد هذا البيان الموجز ، فقد جاءت في سورة البقرة : "وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" [الآية : ١٦٣] ، وفي سورة آل عمران بعد ذكر المصاير التي يلا قيها كل إنسان يوم القيامة : "يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ

مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا" [الآية : ٣٠] ، يقول الله تعالى : "وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ" [الآية : ٣٠] ، فكأن القرآن يوم القيامة مما تقتضيه رحمته ، شأن الوالد الشفوق الذي يحذر ولده من عاقبة سوء الأعمال . ومن النتائج السيئة التي تعقب الأعمال السيئة .

وجاء في سورة الشورى ما يشير إلى هذه الصفة بإيضاح بالغ ، يقول : "اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ" [الآية : ١٩] ، أما في سورة النحل فقد قال الله تعالى : "إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ" [الآية : ٧] في سياق ذكر بعض النعم والمنن التي أنعم بها على عباده ، وفي سورة الأنعام حيث ذكر أن الله خبير بكل ما يعلمه العباد ، قال : "وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ" [الآية : ١٣٣] وجاء في سورة الكهف : "وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً" [الآية : ٥٨] يعني أن ما نراه في هذه الدنيا من تمرد العصاة والمجرمين الذين يتعدون حدود الله ، ويخرجون عن طاعته ، ولكنهم لا يعاقبون ، ولا يؤخذون بعذاب من عنده ، فذلك فضل من رحمة الله ورأفته ، فلو أن الله لم يكن رحيماً بعباده إلى هذا الحد لأتاهم العذاب كلما صدرت منهم خطيئة ولم يمهلهم للمحة واحدة .

ولكن الله يريد أن يعامل معهم معاملة الرحيم الرؤوف فقرر للعصاة المذنبين أيضا أن يتمتعوا بالمهلة حتى إذا وفق من وفق للاستغفار وللإنابة والتوبة إليه فعل ذلك ، وعاش عيشة صالحة فيما بقي له من الحياة ، ويستحق رضا الله ويتقي عذابه يوم القيامة ولأجل ذلك فإن الله قدر لهم موعداً بعد انتهاء الحياة الدنيا للحضور إليه ، حيث لا يمكن لأي إنسان

مهما كان عظيماً أن يحفظ نفسه من موقف لعرض الحساب أو أن يأوي إلى ملجأ يخفي على الله أمره ، يشير القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى :

"كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ" [الأنعام : ١٢] ما أروع قوله : "كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ" [الأنعام : ١٢] كم فيه من معاني الرحمة والرأفة بالعباد ، وكيف يملأ النفس بالطمأنينة والرجاء ، أليس القنوط من رحمة رب كمثله كفراناً بالنعمة ؟ وفي نفس هذه السورة يقول الله تعالى : وهو يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، بأسلوب كله حب وعطف ورحمة : "وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" [الآية : ٥٤].

وما أشقى ذلك الإنسان الذي يحرم رحمة ربه الغفور الرؤوف الذي يوجه رسالة الرحمة والمغفرة إلى عباده الخاطئين عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم بعد رسالة السلام ، وقال تعالى في سورة الشورى : "وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ" [الآية : ٢٥] ، كما جاء في سورة النساء عن الذين يقعون في الزنا ثم يتوبون : "وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا" [الآية : ١٦] ، يعني إذا ثبتت لديكم جريمة الزنا يعاقب الذين ارتكبوها فإن تابوا بعد ذلك وأصلحوا فيعرض عنهم ، لأنهم تعدوا حدود ربهم ثم تابوا فلا شك أن الله غفور رحيم ، وقد بشر الله عباده المذنبين بالتوبة عليهم والمغفرة لهم إذا شعروا بذنوبهم واستغفروا الله " وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا" [النساء : ١١٠].

أما ما قيل في سورة الزمر عن العباد المذنبين ونؤدي لهم في رحمة وعطف فهو نداء من رحمة الله إذا سمعه الخطاؤن المجرمون لم يلبثوا أن يهرعوا إلى الله يطلبون منه المغفرة والرحمة ، وقد أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بتوجيه رسالة الرأفة هذه إلى عباده الخاطئين ، فقال : "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ" [الزمر : ٥٣- ٥٤].

يتضح لنا من هذه الآية وما فوقها من الآيات التي مرت أن باب الرحمة والتوبة مفتوح من عند الله لكل مجرم ومذنب ، بشرط أن ينيب العبد إليه ويصمم عزمه على تحسين أحواله ، وتحسين معاملته مع الله مهما كانت نوعية ذنوبه وجرائمه[1] وكان قد قضى جل حياة في معصية الله.

ولذلك يقترن بيان صفة العدل ، وتنفيذ العقوبات على العصاة المتمردين مع بيان صفات الرحمة والمغفرة والربوبية في مواضع كثيرة من القرآن الكريم كما جاء في سورة الفاتحة ذكر صفة "مالك يوم الدين" مع صفات "رب العالمين" و"الرحمن الرحيم" فإن في ذلك إشارة إلى أن هذه الإعلانات المتكررة للرحمة والمغفرة ليس معناه أن يتحرر العبد فينطلق في المعاصي وأن يعيش كيفما شاء في طاعة أو معصية ، وأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه ، كلا ! فإن القرآن لكي يفند هذا الظن الخاطئ

---

[1] أما الإشراك بالله فليس مغفوراً . (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

يذكر صفة العدل مع صفة الرحمة ، فلنقرأ الآيات التالية التي تنير الموضوع : "فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" [الأنعام : ١٤٧] ، "نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ" [الحجر : ٤٩- ٥٠] وجاء في فاتحة سورة المؤمن مع ذكر شأن الله تعالى : "غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ" [الآية : ٣] .

وقد جاء ذكر صفة العدل لله تعالى وتنفيذ العقوبة على المجرمين في بعض الآيات بأسلوب آخر ، كما جاء في سورة القلم على طريق الاستفهام : "أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ" [الآية : ٣٥- ٣٦] ، وفي سورة ص : "أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ" [الآية : ٢٨] ، وفي سورة الجاثية : "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" [الآية : ٢١- ٢٢] .

وعلى كل ، فإن القرآن يتصدى لذكر رحمة الله بتفصيل ، وأن الناس كلهم يستطيعون أن يأخذوا نصيبهم منها . (ورحمتي وسعت كل شيئ) ، فلو أن أكبر مجرم وعاص تقدم إليه يطلب رحمته ومغفرته ويتوب إليه ، وسعته رحمته ، واحتضنته مغفرته ، ولكنه مع ذلك يحكم بالعدل وتقتضي حكمته وعدالته أن يعاقب العصاة الطغاة ، فالذين يتمردون على أحكامه ويخرجون على أوامره وينقضون قوانينه ويتعدون حدوده غير مقبلين عليه ، قائمين على عصيانهم ، لا يرحمهم الله في الحياة الآتية ، ولا يغفر عنهم

سيئاتهم بل وينفذ فيهم العقوبة ويسوقهم مساق المجرمين الخائنين : "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ" [السجدة : ٢٢].

إن ما تحدثناه إلى الآن عن صفات الله عزوجل إنما كان ينطوي على بيان الصفات الإيجابية لله ، فقد علمنا بذلك أن الله سبحانه عليم بكل صغير وكبير ، وأنه قدير على كل شيئ ، وهو الخلاق الرزاق والمولى والرب ، والمالك الحاكم لا يخرج شيئ عن حكمه وملكه ، ثم هو الرحيم الغفور الذي يتصف بصفة العدل فينعم على عباده الصالحين بنعم ولذات ، ويعاقب العصاة المتمردين ويأخذهم بالنكال والعذاب .

ولكن بيان صفات الله لا يكمل ، وتعريفها لا يتم ما لم تذكر الأمور التي تتعارض مع عظمته وكبريائه ، والتي أخطأ فهمها الجاهلون والملحدون بعض الأحيان ، ولذلك فإن القرآن الكريم لم يكتف بذكر الصفات الإيجابية ، بل إنه أبرز صفات القدوسية والنزاهة الكاملة كذلك ، فلنقرأ بعض الآيات الواردة في هذا الموضوع ، يقول في آخر سورة بني إسرائيل : "وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا" [الآية : ١١١] ، وقال في سورة الأنعام بعد ذكر الجاهلين المشركين أنهم اتخذوا لله شركاء وبنين وبنات بغير علم "سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" [الآية : ١٠٠- ١٠٢].

وتحدث عن صفة النزاهة فقال في بلاغة ما فوقها بلاغة : "لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" [الأنعام : ١٠٣] ، وكذلك في سورة الشورى تحدث عن تنزيه الله عن كل شئ فقال في أروع أسلوب وأوجز بيان : "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" ولنتأمل في هذا البيان الوجيز الذي يؤكد لنا كل جانب من جوانب تقديس الله وتنزيهه ، إنه يبين التنزه الإلهي عن كل ما يعارض شأن قدوسيته وكبريائه ، ولا شك أن كل ضلال نشأ أو ينشأ في هذا الموضوع مرده ذلك القياس الخاطئ ، الذي يقيس أفعال الله وصفاته على الأفعال والصفات الماثلة أمام الأعين في هذه الدنيا ، ولكن القرآن اقتلع جذور ذلك القياس من أصلها بقوله "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" [الشورى : ١١] ، وأكد لنا أنه لا مثال ولا نموذج لأي شيئ من صفات الله وأفعاله في هذا العالم الحاضر ، إن الله موجود واسع كل شيئ ، ولكن وجوده ليس كسائر الموجودات ، إنه "الحي" الذي لا يموت ، ولكن لا شبه له بحياة الأحياء ، (تعالى الله عن ذلك) ، وإنه العليم السميع البصير ، ولكن علمه وسمعه وبصره لا يدركه علم الإنسان وسمعه وبصره في شيئ ، إنه قريب ، ومع كل شخص ، ولكن قربه ومعيته لا تشبه ما في الدنيا من قرب ومعية كما أنه يتصف بصفات الرحمة والحب والغضب والنقمة ، ولكن نوعية هذه الصفات غير نوعيتها في الإنسان ، ولا شك أن بيان القرآن في تنزيه شأنه عن كل شبه ومثل قد نفى كل ما يضاد عظمته وكبرياءه ، "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" [الشورى : ١١].

ويحلو لي في هذه المناسبة أن أختم هذا الباب ، باب بيان صفات الله بعرض آيات تجمع شؤون الله المختلفة وصفاته ، وتشتمل على بيان تقديس الله وتنزيهه مع ذكر صفاته الإيجابية لكماله وقدرته ، فلنقرأ قبل

كل ذلك آية شهيرة في سورة البقرة : "اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ" [الآية : ٢٥٥].

وكذلك تفتتح سورة الحديد بذكر صفات الله وشؤونه في أسلوب رائع جامع ، "سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" [الآية : ١- ٤].

ولنقرأ الآيات الأخيرة في سورة الحشر كذلك ، كما لا ينبغي أن تفوتنا قراءة سورة الإخلاص في هذه المناسبة بعد ما قرأنا إيضاحات مفصلة في الآيات التي تقدم ذكرها ، وهذه السورة رغم قصرها وسذاجتها لا تخلو من الروعة والجمال "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ" [الآية : ١- ٤].

التوحيد : دوره في تزكية الفرد والاجتماع

تؤكد الإيضاحات القرآنية التي أوردناها حول صفات الله تعالى أنه عالم الغيب والشهادة ، وأقرب إلى كل شيئ من نفسه ، وهو القادر المطلق والخالق الرازق ورب كل شيئ ، حاكم الكون ، والحي القيوم ، فلا تتحرك ذرة إلا باذنه ، له الكبرياء في السماوات والأرض ، وهو الرحيم الرؤوف ، والغني الكريم الذي يفتقر إليه كل شيئ وهو لا يحتاج إلى شيئ ، ولا يبالي بمن أعرض عنه ، إنه عادل يجزي كل شخص بأعماله وهو مع اتصافه بصفات الكمال هذه بريئ عن كل ما فيه أدنى شائبة من نقص أو عيب أو ما يعارض شأن قدوسيته .

وبعد ما عرفنا أن هناك إلهاً هذا شأنه ، تقرر لدينا أنه هو الجدير بالتقديس والعبادة والخضوع أمامه في كل أمر ونهي ، والاتصال به في السراء والضراء ، والإنابة إليه عند كل حاجة ، ولدى كل نائبة ، وهو وحده القمين بالتوكل عليه والتفاني في حبه ومرضاته ، واتخاذ ذكره وظيفةً للحياة .

ولذلك فإن القرآن الكريم يتعرض لذكر صفة التوحيد كنتيجة حتمية وحقيقة ثابتة في أغلب المواضع التي يذكر فيها صفات الله ، وقد اطلع على ذلك قراؤنا الكرام فيما أسلفنا من بيان الصفات الالهية ، وعلى ذلك فإن موضوع التوحيد لم يكن مما يحتاج إلى إفراد ذكره كموضوع مستقل ، ولكن بما أن التوحيد موضوع له صلة أعمق بالقرآن وأوثق بالنسبة إلى المواضيع الأخرى ، وبما أن القرآن يركز هذه الدعوة في النفوس أكثر من كل دعوة ، وقد اعتنت بها الكتب السماوية المنزلة قبل

القرآن ، وكانت تدور دعوة الأنبياء وتوجيهاتهم حول هذه النقطة الرئيسية ، نريد أن نفرد هذا الموضوع بالذكر ، ونتناوله بشيء من التفصيل .

وقد تصدى القرآن الكريم لموضوع التوحيد بشرح وتفصيل ، ينوران كل جانب من جوانبه ، ولا شك أن ذلك ضرورة ملحة لا تستغني عنها الأمم ، والأمم في غالب الأحوال وقعت فريسة الأوهام والظنون في توحيد الرب تبارك وتعالى ، بل ولا نغالي إذا قلنا : إن موضوع التوحيد ظل موضع النقاش والجدل لدى الأمم والشعوب أكثر من أيّ موضوع ، وإنها لم تضل الطريق من أجل أي شيئ مثل ما ضلت من جراء التوحيد ، بالرغم من أن الأنبياء كلهم ودعاة الدين كلهم دعووا الأمم إلى توحيد الله دائماً ، أما بالنظر إلى بيان القرآن الواضح ، فلا نعلم أمة أو قوماً لم يكن الأنبياء والهداة قد وجهوا إليها رسالة التوحيد ، يقول الله تعالى : "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" [النحل : ٣٦] ، وفى موضع آخر : "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ" [الأنبياء : ٢٥]

والحقيقة أن الرسل والأنبياء كلهم تناولوا الأمم التي بُعثوا إليها بتعليم التوحيد ، غير أن أكثرها وقعت في نوع من الشرك بعد مضي مدة ، ولا يزال الأمر هكذا ، فإن هناك عدداً كبيراً ممن يؤمنون بالله ولكنهم مصابون ببعض ألوان الشرك ، يقول القرآن : "وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ" [يوسف : ١٠٦] .

وعلى كل ، فإن الشرك لم يزل ولا يزال داءً عضالا عاماً أصيب به الناس ، ولذلك فإن القرآن يركز عنايته على إيضاح هذا الموضوع وتفصيله ، ويريد أن يسد جميع الأبواب التي دخل من طريقها الشرك إلى الأمم السابقة ، أو تمهد له الطريق .

ولم يكتف القرآن في إلقاء درس التوحيد بأن يقول : لا إله إلا الله ، هو الذي يستحق الحمد والعبادة ، بل إنه عدا ذلك تعرض لذكر الصفات الإلهية كلها ، بأنها هي لله وحده ، وأنه واحد فرد في صفاته مثل وحدته وتفرده بذاته ، وواحد فرد في أفعاله وقدرته وفى حق الألوهية كذلك ، بالغ القرآن في إيضاح كل جانب من جوانب الموضوع حتى لم يترك خللا يدخل به لون من ألوان الشرك العقائدي أو العملي ، أو الشرك الظاهر الجلي والباطن الخفي .

نسوق هنا طائفة من الآيات التي تتصل بموضوع التوحيد بعناوين متعددة حسب ترتيب خاص ، وفقنا إليه :

توحيد الذات وتوحيد الألوهية :

هنا عنوان جامع وجيز للتوحيد ، وهو "أن الله واحد لا يستحق أحد غيره العبادة" وقد تكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة من القرآن ، يقول الله تعالى في سورة البقرة : "وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" [الآية : ١٦٣] ، وفي سورة آل عمران : "وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [الآية : ٦٢] ، وجاء في سورة الصافات : "إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا" [الآية : ٤- ٥] ، وفي سورة الأنعام : "قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ"

[الآية : ١٩] ، وقال في سورة الحج : "فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا" [الآية : ٣٤].

توحيد الصفات والأفعال :

يذكر القرآن وحدانية الله تعالى في الصفات والأفعال في آيات مختلفات ، ويوضح هذا المعنى بتأكيد أن الله هو الخالق والرب والرزاق ، والمحيي والمميت دون غيره ، وقد أسلفنا آيات متعددة تتضمن هذا المعنى ، وبالمناسبة نقرأ بعض الآيات الأخرى كذلك ، فقد جاء في سورة الروم : "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" [الآية : ٤٠] ، وفي سورة فاطر : "قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ" [الآية : ٤٠] ، وجاء في نفس هذه السورة في مكان آخر : "هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ" [الآية : ٣] ، وقال في سورة العنكبوت : "إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" [الآية : ١٧].

الكون كله وما يحويه تحت أمره .

يعلن القرآن مدوياً أن الأرض والسماوات والكون كله تحت أمر الله ، وكما أنه خالق كل شيئ ورازقه كذلك الخلق والأمر كله له ، "لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ" [الأعراف : ٥٤] ، "وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" [القصص : ٧٠] ، فلا يقدر أحد من خلقه على أي أمر يقدر عليه هو ، فلا معطي ولا مانع ، ولا محيي ولا مميت ، ولا نافع ولا ضار إلا الله .

وإذا كان هناك قليلو الإيمان بالله وضعيفو الثقة به وهم يعتقدون أن هناك رجالا لهم دخل في بعض نظام الكون ، وبيدهم النفع والضرر ، فإن القرآن يكذب هذا الظن ، ويؤكد أن هؤلآء لن يتصرفوا شيئاً في أمر الله ولو اجتمعوا له ، ولن يمنعوا ما الله يعطيه ، ولا يعطوا ما يمنعه الله ، ولنقرأ كيف ينفي القرآن هذا الظن ويكذبه في أسلوبه القوي : "إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ" [الشورى : ١١٦] وأكد هذا المعنى في سورة فاطر : "ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ" [الآية : ١٣] وفي سورة الحج : "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ" [الآية : ٧٣] وفي سورة سبأ : "قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ" [الآية : ٢٢] وقال في سورة الزمر : "قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ" [الآية : ٣٨] وقال : "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ" [الشورى : ٩] .

نظام الكون بيد الله :

يقول القرآن في موضع ، مفاده : إن الله هو الذي يشرف على نظام هذا الكون الدقيق من غير أن يشاركه أحد غيره ، وهو الذي يمسك السماوات والأرض من الزوال ، فإن تركهما للحظة واحدة لم يقدر أحد على إمساكهما ، بل يكون ذلك إيذاناً بفناء العالم ونهاية الكون ،

يقول : "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ" [فاطر : ٤١].

إن الله لهو الحي وهو عالم الغيب والشهادة :

ويتحدث عن الحياة الأصلية التي لا تعرف النهاية ولا الموت ويقول : إنما هي لذات الله سبحانه ، وكل حياة غيرها عارية فانية ، لا بد لها من الموت والفناء : "هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ" [الغافر : ٦٥] ، "كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ" [القصص : ٨٨].

وكذلك يوضح القرآن أن صفة العلم بكل صغير وكبير وشاهد وغائب تختص بالله سبحانه ، وهو عالم الغيب والشهادة على السواء ، لا تخفى عليه خافية من قول أو عمل "يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ" [البقرة : ٢٥٥] ، ويقول : "لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ" [الكهف : ٢٦] ، وقال في سورة النمل : "قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ" [الآية : ٦٥] ، وفي سورة الأنعام : "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ" [الآية : ٥٩].

توحيد الحقوق :

وحينما يؤكد القرآن توحيد الله في الذات والصفات والأفعال والقدرة يؤكد أيضاً أن الله واحد أحد في حقوقه التي تعود على عباده ، إذ ليس هناك من يستحق من العباد ما يستحقه الله منهم ، فالحمد والثناء حقه ، وهو الجدير والوحيد بالولاء والخشية ، وهو الذي يعتمد عليه ويوثق به ويرجع إليه ، وهو الحاكم والمولى الحقيقي ، فيجب أن يخضع

أمام قانونه ، وله حق التشريع لعباده ، وهو سميع الدعاء ومستجيبه فلا بد من دعائه ، وهو الإله المعبود فيجب أن تخلص له العبادة ولا يشرك به غيره ، ولنقرأ ما يقوله القرآن في هذا الموضوع : "وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ" [القصص : ٧٠] ، وفي موضع آخر من سورة الجاثية : "فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [الآية : ٣٦- ٣٧]

الولاء والخشية لله :

ومعنى ذلك أن الله بحكم منته الكثيرة وفضله العظيم على الخلق إنما يستحق أن يوجه إليه الولاء كله والخشية كلها ، وأن يحبه عباده أكثر من كل شيئ ويمنحوه من الخشية والتقى ما يفرضه عليهم جلالة شأنه وجبروته ، أما الجهلة الذين اتخذوا أرباباً من دون الله يحبونهم كحب الله ، ويخضعون لهم كما يخضع لله ، فيتحدث عنهم القرآن "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ" [البقرة : ١٦٥] ، ويقول عن الخشية : "فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" [التوبة : ١٣] ، وفي سورة المائدة : "فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ" [الآية : ٤٤].

وهو الجدير بالتوكل والإنابة : "هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" [التوبة : ٥١] . "وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ" [الحج : ٧٨] ، وجاء في سورة المزمل : "رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً" [الآية : ٩].

وهو الحاكم الذي يجب العمل بحكمه : "أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً" [الأنعام : ١١٤] ، أما المتمردون الذين يتخذون ما يأمرهم به أربابهم من دون الله شريعة ويعتبرون اتباعهم واجباً لا محيص عنه ، فيقول عنهم القرآن : "أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ" [الشورى : ٢١].

أهم ما يتطلبه القرآن في باب التوحيد

التوحيد في الدعاء والتوحيد في العبادة

يركز القرآن الكريم عنايته في موضوع التوحيد على أن الدعاء والاستعانة لكل غاية إنما يختصان بالله ، وأنه هو الذي يستحق العبادة وحده ، وذلك لأن الأمم غالباً ما وقعت فريسة الشرك في هذه الناحية بصفة خاصة ، وأن ضعفاء الإيمان وقليلي الصلة بالله من الناس اعتمدوا على غير الله في قضاء حوائجهم وإزالة مصايبهم ووجهوا إليهم النداء والدعاء وطلبوا منهم تحقيق مطالبهم ، وقد خضعوا وسجدوا أمامهم ، وتناولوهم بألوان من العبادة مما لا يجوز لغير الله أبداً ، ولا يخفى على ذي عينين أن أنواع الشرك المنتشرة بين الناس اليوم هي ما ذكرنا ، وهي التي تعم في الطبقات المشركة المبتدعة الخرافية ، حتى يوجه من بين هؤلآء عدد وجيه ممن يزعمون أنهم مسلمون .

وبما أن معظم الشرك يظهر في الدعاء والعبادة ، وهو ضلالة دينية كبيرة يصاب بها كثير من البسطاء الجهلة ، تناول القرآن معنى التوحيد في العبادة والتوحيد في الدعاء بتأكيد وإلحاح بالغين ، ولنقرأ أولاً بعض الآيات مما يتعلق بمعنى التوحيد في الدعاء ، يقول الله سبحانه : "لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ" [الرعد : ١٤] .

وجاء هذا المعنى في سورة الأعراف : "وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ" [الآية : ١٩٧] ، وفي سورة الإسراء : "قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ

عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً" [الآية : ٥٦] ، وقال في سورة المؤمنون : "وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ" [الآية : ١١٧] ، " فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ " [الشعراء : ٢١٣] .

وجاء في خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم : "قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا" [الجن : ٢٠] ، وفي سورة القصص : "وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ" [القصص : ٨٨] ، وقد أشار القرآن في هذه الآية لذوي الفكر والعقل إشارةً استدلالية واضحة ، وهي أن الله هو الباقي الخالد الدائم الذي يتولى الخلق والأمر والرزق والتربية ، حتى إن الجاهلين المشركين ، الذين يرجون من غير الله قضاء الحاجات ، ويطلبون منه تحقيق مطالبهم إنما يعترفون بحقيقة وجود الله ويؤمنون بخلوده كما يعتقدون بفناء كل شيئ غيره .

وإلى ذلك يستلفت القرآن أنظار هؤلآء المشركين ويبعثهم على التفكير في أن الذين يدعونهم من دون الله ما داموا لا يملكون حياتهم وبقاءهم ، ولا يقدرون على إنقاذ أنفسهم من الفناء والهلاك كيف تصح الاستعانة بهم والاستغاثة نحوهم والدعاء منهم ، فإن ذلك جهل وسفاهة ليس بعدهما جهل وسفاهة .

فليتفكر الذين يدعون الأصنام أو الأرواح المقدسة أو الأنبياء والصالحين الذين مضوا ويستغيثونهم ويطلبون منهم قضاء حاجاتهم مع العلم بأنهم هالكون فانون ، كيف يرضون بهذه الجهالة الجهلاء وكيف ترضى أنفسهم بالسقوط في هذا الحضيض من الشرك .

بعد ما قرأنا آيات مما يتصل بالتوحيد في الدعاء يحسن بنا أن نسوق عدة آيات تتناول موضوع التوحيد في العبادة ، يقول الله تعالى في سورة الاسراء : "وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ" [الآية : ٢٣] ، وفي سورة النساء : "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" [الآية : ٣٦].

وبما أن العبادة التي توجه إلى غير الله والآلهة الكاذبة إنما تصدر من أهلها لاعتقادهم بأنها تقدر على جانب من النفع والضر والفساد والصلاح ، ولذلك فإن القرآن حينما ينهى عن الإشراك في العبادة يصرح بأن الذين تعبدونهم أو تدعونهم إنما هم عاجزون عن كل نفع وضرر ، فلا هم ينفعونكم ولا يضرون ، يقول القرآن في سورة المائدة : " قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " [الآية : ٧٦] ، وجاء في سياق الحديث عن هؤلآء المشركين : "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ" [النحل : ٧٣].

ويتحدث القرآن أيضاً عن الأمم التي وقعت في الشرك واتخذت إلهاً غير الله على رغم أن الأنبياء والهداة الذين جاؤا فيها لم يكونوا قد أمروها بالشرك بل علموها التوحيد الخالص لله ، يقول القرآن : "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" [التوبة : ٣١] ، وقال في سورة النحل : "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" [الآية : ٣٦] ، وجاء في سورة الأنبياء : "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" [الآية : ٢٥].

أما الأنبياء والرسل الذين تناول القرآن بيان دعوتهم وتوجيهاتهم بتفصيل فقد صرح أن أول كلام وجهوه إلى أممهم هو أن الله وحده يستحق العبادة ، فاعبدوه مخلصين له العبادة ولا تعبدوا غيره : "أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ" [هود : ٢٦] ، و"أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" [المؤمنون : ٣٢] ، وقد حكى لنا القرآن أن هذا هو الكلام الذي قاله نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام ، وذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام وكل من جاء بعده من الرسل .

وقد اختلق اليهود عقيدة التثليث ، وأشرك بعضهم المسيح وروح القدس ، وبعضهم المسيح وأمه مريم الصديقة في الألوهية ، وقالوا : إن المسيح هو الذي علمنا بذلك ، فتصدى القرآن للرد على اليهود حيناً لآخر ، وصرح بأن المسيح عليه السلام لم يأمر قومه إلا بالتوحيد شأن الأنبياء الآخرين ، وحثهم على عبادة الله وحده ، "وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ" [المائدة : ٧٢] ، وحينما قدم المسيح عليه السلام نفسه كرسول إلى قومه ، وقال : "أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ" [آل عمران : ٤٩] ، أردف ذلك بقوله : "إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ" [آل عمران : ٥١] .

وعلى كل ، فإن القرآن الكريم قد ضغط على كل جانب من جوانب التوحيد ، ووضع سداً على كل ثغر من الثغور فلم يترك أيَّ خلل يدخل منه الشرك ، وخاصة ركز عنايته على موضوع التوحيد في

الدعاء والتوحيد في العبادة ، وذلك لأن النافذة الكبيرة التي دخلت منها ألوان الشرك إلى المجتمع هي الإشراك في الدعاء والإشراك في العبادة ، ولعل ذلك هو السبب للميثاق الأكيد الذي يمنحه العبد ربه في : إياك نعبد وإياك نستعين" في أول سورة يتلوها من القرآن ، كما تعرض القرآن لتعليم هذا التوحيد في مواضع كأنه هو الدعوة الأصلية للقرآن وصاحبه ، وكأنه هو الغاية القصوى للدعوة ، ونقطتها الرئيسية التي تدور حولها الدعوة الاسلامية ، اقرأوا أواخر الآيات من سورة يونس :

"قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" [الآية : ١٠٤- ١٠٧].

إن هذه الآية تعلن مدوياً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرِّح للناس دينه وطريقه الذي يدعو إليه ، وأن المحور الرئيسي الذي تدور حوله دعوته هو إخلاص العبادة لله وحده ، ودعاؤه هو في السراء والضراء ، واعتقاد النفع والضرر بيده ، فلا يستغاث إلا إليه ولا يستعان إلا به ، ولا ينادى إلا هو ، ولا يشرك به شيئ في الدعاء والعبادة أبداً .

الدرس الأخير في باب التوحيد

إن التوحيد وما قدمنا حوله من البحث إنما هو ميزة القرآن والإسلام، إذ لا نعرف كتاباً دينياً أو صحيفةً سماويةً أو تعاليم نبي أو هادٍ ، يتضمن مثل هذا الدرس الشامل لمناحي التوحيد كلها ، ويحوي هذا البحث المتكامل في باب التوحيد ، ولكن القرآن الكريم تقدم خطوة أخرى أيضاً في موضوع التوحيد ، وجاء فيه بكلام نستطيع أن نسميه الدرس الأخير المكمل للتوحيد ، فقد قال في آخر سورة الأنعام مخاطباً للنبي صلى الله عليه وسلم : "قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" [الآية : ١٦٢- ١٦٣].

لقد أمر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يعلن مدوياً أن صلاتي وسائر عباداتي ، كلها لله تعالى ، كما أن حياتي ومماتي لله تعالى ، وقد أمرت بذلك ، فكل ما أقوم به من عمل ، صغيراً كان أو كبيراً ، وكل ما أملكه من شيء إنما اعتبره لله سبحانه وتعالى ، فلا أعيش إلا في رضاه وطوع إشارته دائماً ، إنني أول الناس خضوعاً لأمر الله تعالى ، وأسرع الناس إلى طاعته وطلب مرضاته ، في كل حين ولمحة .

وما من شك في أن أرفع منزلة للتوحيد أن يفوض العبد نفسه إلى الله تعالى ، ويعتقد أن حياته ومماته وكل ما يملكه إنما هو لله تعالى ، فلا يعيش إلا في رضاه ولا يخضع إلا لأمره .

ولعل الحكمة في أسلوب القرآن الحكيم حول هذا الموضوع وتوجيه الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الإعلان العام للناس ، أن نبياً حينما يعلن بلسانه أمام العالم عن تركيز كل خضوع وعبادة وتفويض الحياة والمماة كلها إلى الله تعالى ، ويقول : "قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" [الأنعام : ١٦٢- ١٦٣] ، لا تبقى مندوحة لأي إنسان أن يعتبر ذلك الرسول شريكاً في الألوهية في أي لمحة .

والحقيقة أن الأمة التي آمنت بالنبي صلى الله عليه وسلم كخاتم النبيين وسيد الرسل كانت تتعرض لهذا الخطر الكبير في باب التوحيد ، إذ لم تكن بمأمن من أن تزعم النبي صلى الله عليه وسلم إلهاً أو شريكاً في الألوهية كما فعلت أمة عيسى عليه السلام معه ، ولأجل ذلك فإن القرآن الكريم ذكر معاني عبدية النبي عليه الصلاة والسلام وبشريته ، وبيَّن عجزه وخشوعه لله تعالى في آيات كثيرة ، واتخذ لذلك في أكثر الآيات أسلوب الخطاب كأنه صلى الله عليه وسلم يؤمر بإيضاح ذلك من قبل نفسه ، فتارة يقول : "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ" [فصلت : ٦] .

وتارة يخاطب فيقول : "قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً" [الإسراء : ٩٣] ، ومرة يطالب ويقول : "قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا" [الجن : ٢١- ٢٢] ، وفي موضع آخر : "قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ

مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" [الأعراف : ١٨٨].

وقد اهتم القرآن بالتعبير عن كلمة "العبد" في كل موضع تناول فيه النبي صلى الله عليه وسلم بذكر خصائصه وامتيازاته وما خصه الله به من معجزات وخوارق ، وذلك لتأمين الأمة الإسلامية عن أخطار الشرك ، التي وقعت فيها الأمم السابقة ، فكرامة الإسراء والمعراج التي ساقها الله إليه وخصه وأكرمه بها دون سائر الأنبياء والرسل والملائكة ، ذكرها القرآن بنفس هذا الأسلوب ، وقال : "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً" [الإسراء : ١] ، وحينما ذكر القرآن قصة المعراج وبيَّن اقتراب النبي صلى الله عليه وسلم إلى حضرة الرب تبارك وتعالى فقال : "فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى" [النجم : ٩] ، أردف ذلك بقوله : "فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى" [النجم : ١٠] ، لكيلا يكون هذا الاقتراب مثار شك في عبديته صلى الله عليه وسلم .

ويجدر بالذكر في هذه المناسبة أن كلمة الشهادة التي تعتبر أساساً للإسلام وهي "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله" لا تحتوي على الشهادة بوحدانية الله تعالى وإعلانها والاعتراف بها فحسب ، بل تشمل شهادة عبدية محمد صلى الله عليه وسلم مع الإيمان برسالته ، وهي شهادة لا يكمل الإيمان بدونها ، ولا يعتبر المرء مسلماً ما لم يشهد ويعترف بذلك .

وعلى رغم أنني لم أهتم في هذه المقالات إلا بعرض الموضوع في ضوء القرآن وتعاليمه فقط ، غير أنه يحلو لي — وأنا أتحدث عن الدرس

الأخير في باب التوحيد – أن أقدم إلى القراء بعض تلك الأحاديث التي تحدث فيها النبي صلى الله عليه وسلم عن عبديته وخنوعه أمام الله تعالى ، لكي يسد في وجه أمته باب تلك الضلالة التي وقعت فريستها أمم من قبله من الأنبياء كالمسيح عليه السلام ، يقول صلى الله عليه وسلم في إحدى المناسبات : "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، أنا عبده ؛ فقولوا عبد الله ورسوله ، رواه البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه" ، وجاء في حديث آخر ضمن تأكيد لأحد أصحابه : "لا ترفعوني فوق حقي ، فإن الله تعالى قد اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً"[1] .

وقد حدث مرة أن بعض الصحابة أفرطوا في إبداء تعظيمهم وإجلالهم له ، فاستنكر ذلك منهم وشدد النكير ، حيث قال : "لا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله"[2] وذات مرة قال أحد الصحابة ضمن كلام له "ما شاء الله وشئت" فغضب عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : "جعلتني لله نداً ، بل ما شاء الله وحده"[3] .

ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الأمم التي سبقته اتخذت قبور أنبيائها مساجد ، واعتبرتهم مثل الإله بالرغم من أن أولئك الأنبياء قاموا بمحاربة الشرك وبذلوا جهوداً كبيرة في اقتلاع جذوره من النفوس ،

---

1 رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك .

2 رواه أحمد وعبد بن حميد وسعيد بن منصور والبيهقي في شعب الإيمان .

3 رواه الطبراني في الكبير – كنز العمال ١٣٤/٢ .

وتلقين درس التوحيد في المجتمع ، فحذر النبي عليه الصلاة والسلام أمته من ذلك ، وأنذرهم بقوله : "إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك"[1] ودعا الله سبحانه قبل وفاته في مرضه الأخير فقال : "اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"[2] .

ولاشك فإن هذه التصريحات من النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت بمثابة سد منيع في وجه الشرك وعبادة غير الله ، وهي تفسير لما جاء في القرآن من درس التوحيد ، فصلوات الله وسلامه على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذي شرح للناس معنى التوحيد بمثل هذه القوة والصرامة .

ذم الشرك والمشركين والبراءة منهم :

وجه القرآن إنذاراً إلى المشركين والثائرين على دعوة التوحيد حيث دعا الناس إلى توحيد الله سبحانه وتنزيهه من جميع شوائب الشرك ، واتخذ لذلك أسلوب التحذير من سوء عاقبة الشرك ، وأعلن عن مقت الله الشديد وغضبه وكراهيته لمن يشرك به ، ولنقرأ آيات في هذا الموضوع ، فقد قال الله تعالى في سورة النساء : "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ" [الآية : ٤٨] ، وفي سورة المائدة : "إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ" [الآية : ٧٢] .

---

1 رواه مسلم عن جندب بن عبد الله.

2 مؤطا الإمام مالك.

ولأجل أن الشرك ليس مما يغفر أو يصفح عنه ، ولأن كل مشرك لابد من أن يلقى مصيره المحتوم ، ويلقى في نار جهنم ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون جميعاً أن لا يستغفروا لأي مشرك ولا يدعو الله له ، فإن الله لا يرضى بأن يدعى للمشركين ويستغفر لهم ، يقول الله تعالى : "مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى" [التوبة : ١١٣] ، وجاء في نفس هذه السورة "إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ" [التوبة : ٢٨] ، وفيها أيضاً "أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ" [التوبة : ٣] .

ولو أننا لم نتخذ أسلوب الإيجاز في موضوع دعوة التوحيد التي ذكرها القرآن ، ولكننا على رغم من ذلك نجزم كل الجزم أن ما أوردناه في هذا الباب وقدمناه إلى القراء إنما هو قطرة من بحر زاخر لا يعرف له أول ولا آخر .

والذي أكرمه الله بنعمة فهم القرآن والتأمل في آياته وما فيها من أسرار وعلوم يستطيع أن يفهم بالتدبر المباشر في القرآن تلك المعاني التي تحويها دعوة التوحيد في القرآن ، وينزل إلى أعماق دقائق الموضوع وسعة آفاقه ، بل إنه كلما فكر وتدبر فيه علم أن علمه محدود جداً بالنسبة إلى ما أودع الله في القرآن من المعارف والحكم والأسرار والدقائق ما ليس له حد ولا نهاية .

الإيمان بالآخرة

من الحقائق التي يجب علينا أن نؤمن بها حقيقة الآخرة ، وما أكثر ما نجد في القرآن ذكر الإيمان باليوم الآخر مع ذكر الإيمان بالله ، فقد قال الله تعالى في موضع : "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ" ، كما يقول في موضع آخر : "يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ" .

ومعنى الإيمان بالآخرة أن نعتقد ونعترف بالحقيقة التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من حياة جديدة بعد هذه الحياة وبعد هذه الدنيا التي يلاقي فيها الإنسان أعماله التي كسبها في حياته السالفة وهنالك ينال جزاءها ، وهذا هو إجمال من تفصيل هذه العقيدة .

ومن الذي لا يعرف — ولو على وجه الإجمال — أنه في حاجة إلى حياة أخرى بعد هذه الحياة ليحاسب فيها أعماله ثم ينال فيها جزاءها ، فقد نرى كثيراً من الناس أنهم — طول حياتهم — يقترفون الكبائر من قطع الطريق وغصب الأموال والارتشاء والظلم وغمط حقوق الناس ، ولكنهم يتنعمون بذلك طول حياتهم أيضا ويموتون في يوم من الأيام ، كما نرى كثيراً من الناس أنهم يعيشون في العبادة والتقوى لا يظلمون ولا يغدرون ولا يخدعون ولا يغمطون الحقوق إنما هم يعبدون الله ويخدمون خلقه ، ولكنهم رغم ذلك يعيشون في ضنك وضيق ويعانون آلاما وأمراضاً حتى يأتي أجلهم ويموتون .

إن هذا الكون من خلق الله تعالى الذي لا يخفى عليه شيئ من أعمال الإنسان وهو قادر على أن يحاسبه في الدنيا ويجزيه حسب أعماله ، ولكننا

بالرغم من ذلك نرى أن كل شخص سواء كان صالحاً أم فاسداً ليس له جزاء بما يكتسبه كل يوم في حياته من خير وشر .

ومن هنا نستطيع أن نفهم جيدا أنه لا بد من أن يؤول إلى كل إنسان جزاؤه في حياة أخرى غير هذه الحياة ، لأن الله تعالى ليس عنده ظلم ولا حرمان ولا سوء تقدير لما يعمله الإنسان بل كل من المحسنين والمسيئين ليسألون عما اكتسبوه في حياتهم الدنيا من الأعمال خيراً كانت أو شراً ، حسنة كانت أو سيئة ، وهنالك يتضح الفرق بين هذين النوعين ، ولا يمكن أن يتساوى النوعان في الجزاء ، يقول الله تعالى في سورة القلم : "أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ" [الآية : ٣٥] .

ونستطيع أن نعبر عن هذا المفهوم بعبارة أخرى ونقول : إن لكل شيئ في هذه الدنيا خواصٌ وتأثيرات ، مثلا خاصة النار أن تحرق ، وخاصة الماء أن يطفئ وينظف ، كما أن العقاقير تحمل خواص لا يحملها غيرها كذلك أعمال الإنسان المادية فإن لها خواص وتأثيرات أيضا لا بد لها من أن تظهر مثلا أنه إذا أكل الطعام ذهب جوعه وأتاه الشبع ، وإذا شرب الماء ذهب الظماء وإذا أكل شيئاً ثقيلا أثقله ، وربما أورث الألم في معدته ، كما إذا أكثر في الأكل مرض ، ثم إذا شرب سماً مات ، وإذا تناول الدواء برئ من المرض ، ومن المعلوم أن أعمال الإنسان الخلقية سواء كانت حسنة أم سيئة أكثر أهمية من أعماله المادية ، فكيف يمكن أن تكون هذه الأعمال الخلقية خالية من أي تأثير أو نتيجة أو خاصية .

وأضرب لذلك مثل رجل يطعم طعامه شخصاً آخر دون أن يأكله ويبقى جائعا أو يروى بمائه غلة شخص آخر ويعاني بنفسه من شدة العطش أو يمرض المرضى ويواسي الفقراء والأيتام وينفق عليهم ما

يكسبه من المال ، ثم هو مع ذلك يعيش دائما في عبادة الله وطاعته وطلب رضاه ، فيقتضي العقل الإنساني لمثل هذا الرجل أن يظهر تأثير أعماله الصالحة وتترتب على حياته نتائجها التي يجب أن تكون أرفع قيمة وأكثر أهمية من نتائج الأعمال المادية وتأثيرها ، كما أن رجلاً يظلم الناس ويؤذي الضعفاء والبائسين ويخون أمانات الناس ويغشهم في المعاملات ويرتشي ويقطع الطريق ، لا رحمة فيه ولا محبة ، يقتل الناس بدون حق ولا يخطر على باله أبداً أن يذكر الله سبحانه وتعالى الذي يرى جميع هذه الأعمال ويطلع على كل ما يرتكبه من الجرائم الخلقية والإنسانية ، فيقتضي العقل البشري أنه لا بد لمثل هذا الإنسان الظالم أن يواجه نتائج قاسية لأخلاقه المنحطة المتدهورة .

فلما كان الإنسان يلاقي عقاباً قاسياً لجرائمه المادية كيف لا يلاقي عقاباً شديداً لجرائمه الخلقية ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك : "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" [الجاثية : ٢١] .

وعلى كل حال ، فقد نرى أن نتائج أعمال الإنسان المادية تظهر في هذه الحياة على العكس من نتائج أعماله الخلقية والروحية فإنها لا تظهر في هذه الحياة ، ومن هنا نستفيد علماً أن حياة الإنسان ناقصة ولا بد له من حياة كاملة أخرى حيث تترتب عليه نتائج وتأثيرات لأعماله الخلقية ويلاقي مصيره المحتم من الجنة أو النار .

وإن لله سبحانه وتعالى لحكمة في ثوابه وعقابه لأنه لو كان الإنسان نال ثواباً أو عقاباً في هذه الدنيا لما بقيت حياته حياة امتحان واختيار ،

وقد خلق الله سبحانه هذه الحياة للامتحان فقط ثم أخفى نتائج هذا الامتحان في عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا هو ، وبعث الأنبياء عليهم السلام ليعلنوا في الناس أن من عاش في طاعة الله وعبادته جعل له جزاءً طيباً في حياته المقبلة ، وأما من عصى الله وقضى حياته في غير عبادته وطاعته عاقبه الله تعالى عقاباً شديداً وهيأ له عذاباً أليماً .

ولكن إذا كان هذا الثواب والعقاب نالهما الإنسان في حياته الدنيا لما كانت هذه الحياة امتحاناً وتوقى كل إنسان المعاصي كما يتوقى الدخول في نار ، والتجأ إلى الأعمال الصالحة كما يلتجئ إلى الأكل والشرب ولبقى الثواب والعقاب لفظين لا معنى لهما .

وهناك سبب آخر لكون الثواب والعقاب في عالم الآخرة وهو أن الله تعالى يريد لعباده الصالحين جزاء لا يعادله جزاء في هذه الدنيا وحياة راضية لا تساويها حياة في الدنيا مهما كانت راضية ، كما أن الله تعالى هيأ للمجرمين عذاباً شديداً لا يمكن مثله في الدنيا حتى إذا ظهر شيئ من ذلك تحولت كل راحة وكل سرور من مسرات هذه الدنيا قلقاً ومرارة .

وإن هذه الدنيا لضعيفة ومحدودة ، وإن نظامها يتضمن الراحة والقلق على السواء ، فالحياة الراضية التي يريدها الله تعالى لعباده جزاءً بما أطاعوه ، إنها لتتحقق في عالم لا يجد إليه السوء سبيلا ، وإنما يكون ذلك عالم السرور والفرح الدائم .

ثم إن العذاب الذي هيأه الله تعالى للمجرمين والعصاة جزاءً بما عملوا كذلك ، يتحقق في عالم ليس فيه إلا الأحزان والآلام .

هذا هو قضاء الله وتقديره الذي سيجري في العقاب والثواب لعباده في الحياة الآتية ، وتلك هي الآخرة التي تحتوي على نوعين اثنين : أحدهما الجنة والآخر النار ، وإن الجنة ستكون مظهراً لإنعامه وفضله على العباد ، كما أن النار تكون صورة واضحة لغضبه وعقابه ، وكل واحد من هذين النوعين يكونان على مستوى أعلى يتجلى فيه شأن الربوبية والألوهية .

فحاجة الآخرة وكون الجنة والنار فيها إنما هو دليل على رحمة الله تعالى وغضبه ، ومظهر لجلاله وجماله في صورة أوضح وأجلى من صورتها في الدنيا ، فإن صورة هذا الجلال والجمال موجودة في الدنيا ولكنها صورة مصغرة محدودة ، ولذلك كانت الآخرة حاجة الحياة الدنيا ، ولولاها لما تجلت الصفات الإلهية تجلياً واضحاً وكاملاً .

فلما عرفنا هذه الحاجة حاجة الحياة الإنسانية إلى الآخرة ينبغي لنا أن نعرف كذلك أن عقيدة الآخرة تؤدي دوراً هاماً في إصلاح الحياة الإنسانية ، ولا ينكر كل من له إلمام بتاريخ هذا العالم أو عنده صبابة من العقل والتفكير أن الإيمان بالآخرة هو الذي ينقذ الإنسان من كل جريمة خلقية والتردى فيها إنقاذاً لا ينقذ مثله شيئ آخر أو نظام بشري غيره ، وأعترف بأن قانون الحكومة والشعور بالشر والخير والتمييز بينها شيئان يؤثران في النفس الإنسانية أثراً حسناً ويمسكانه من الوقوع في جرائم خلقية ، ولكنهما لا يعادلان في هذا التأثير الإيمان بالآخرة وبالعقاب والثواب فيها ، بشرط أن يكون هذا الإيمان إيماناً حياً وإيماناً نابضاً حقيقياً

وليست هذه القضية قضيةً منطقيةً فحسب ، وإنما نشاهد ونجرب كل يوم أن الجرائم والسيئات تتسرب إلى مجتمع فارغ من الإيمان بالآخرة واعتقاد الثواب والعقاب ، أما المجتمع الذي تجتمع فيه القلوب العامرة بنور الإيمان والنفوس المؤمنة فإنه لا يجد الشيطان إليه سبيلاً .

ولا يخفى على دارس التاريخ أن المجتمع الذي اهتم بعقيدة الآخرة والإيمان بالبعث والثواب والعقاب لقد كان ذلك مجتمعاً سليماً أفضل من غيره في كل عصر ومصر .

فالآخرة حقيقة يشهد بها الأنبياء والكتب المنزلة عليهم كما يشهد بوجودها العقل الانساني السليم ، وإنها حاجة الحياة الإنسانية الأكيدة التي لا غناء عنها .

أما تفاصيل العقاب والثواب في الآخرة فلا تتيسر إلا عن طريق النبوة ، ومعلوم أن كل نبي بعث في أمة أخبرها بهذه التفاصيل حسب الظروف والأحوال إلا أن الأمم لم يحفظها كليا . فكانت التفاصيل التي وصلتنا أخيراً من طريق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صحيحة باقية كما أن الأخبار التي ذكرها القرآن أخبار مؤكدة ومحفوظة لا مرية فيها ولا شك ، وهذه الأخبار والتفاصيل لا تحتوي على أشياء وأمور ينكرها العقل .

وبما أننا لم نشاهد أمور الآخرة ولم نجربها بأنفسنا تبدو لنا غريبة حتى إن بعض الناس لا يكادون يصدقونها ، وإن مثل ذلك كمثل الجنين إذا استطاع أحد أن يناجيه بطريق أو بآلة ، ويقول له وهو في بطن أمه أنت أيها الجنين ستأتي إلى دنيا تمتد على مسافة ملايين الأميال فيها

الأرض والبحاروالسماء والكواكب والنجوم وفيها طائرات محلقة في السماء وقطر سريعة تباري الريح ودبابات وقنابل ذرية وصواريخ هائلة وحدائق غناء ، ومنتزهات واسعة وصحارى مترامية الأرجاء .

هب أن الجنين سمع هذا القول وفهمه ، ولكنه لا يكاد يعتقد أن ما قيل له حق ، لأن الدنيا التي هو يعرفها إنما هي دنيا الرحم الصغيرة المحدودة .

فقصة الآخرة لأهل هذه الدنيا تماثل قصة الدنيا الواسعة للجنين في بطن أمه فإنه ما دام في الرحم لا يعرف دنيا أوسع من دنياه ، كذلك لا يستطيع أهل هذه الدنيا أن يقيسوا الآخرة عليها ، وما أن وُلد الجنين رأى هذه الدنيا الواسعة العريضة التي كانت موضع شك وارتياب منه قبل أيام ، كذلك لم يغادر الإنسان دنياه إلى الآخرة إلا صدق كل ما قيل له عنها وأُخبر به .

وعلى كل ، فإن التفاصيل التي عرفناها عن طريق النبوة كلها حق ، وقد يحول دون ذلك قلة علم الناس ومشاهدتهم المحدودة حتى تجرهم إلى الشك ، اللهم من رزق قلباً سليماً وإيماناً صادقاً فإنه يعترف بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد من الأخبار والتفاصيل .

والإنسان فطرياً يعتمد في الأمور التي لا يعلمها هو – بالطبيعة – بنفسه على الذي علمها عن طريق صحيح أو رآها بعينه ، ثم يكون ذلك معترفاً عند الناس بصدقه وأمانته .

ولذلك فكل ما ذكره القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم من أحوال الآخرة والبعث ، والثواب والعقاب والجنة والنار كلها حق ، ويجب علينا

أن نؤمن بها كعقيدة تنبع من أعماق الضمير ، ونؤمن بأن الآخرة حقيقة واقعة يواجهها كل إنسان بعد موته ، وهذا هو معنى الإيمان بالآخرة .

آمنا بالله وباليوم الآخر

تأكيد القرآن على ضرورة الآخرة

من الحقائق التي يدعو إليها القرآن بقوة وتأكيد بالغين ، ويُلح على تأسيس الحياة عليها قضية الآخرة ، وهي تحل المحل الأول الأساسي بعد الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم والاعتقاد بصفاته والإقرار بوحدانيته ، وكأن القرآن يخاطب الإنسان ويقول : إنك أيها الإنسان حينما تعترف بوجود الله على رغم أنك لا تسمع صوته ولا ترى شخصه ، وذلك لأن وجود الله حقيقة لا يتطرق إليها شك ، كذلك الآخرة حقيقة لا مجال فيها للشك ، ويعني ذلك أن هناك حياة بعد هذه الحياة الدنيا ، ولكنها ليست فانية كالحياة في الدنيا ، بل إنها حياة دائمة ، تفوق الحياة الدنيا آلاف المرات في البهاء واللذة وسينال فيها الإنسان جزاء ما عمله في الدنيا من حسنات أو سيئات .

وبما أن قضية الآخرة تحل في الإسلام محل الأساس كالاعتقاد بوحدانية الله وصفاته ، دعا إلى الإيمان بها جميع الأنبياء والكتب السماوية التي أنزلت عليهم ، ولما كان القرآن كتاب الله الأخير في هذه الدنيا ركز اهتمامه البالغ على قضية الآخرة ومناحيها المختلفة ، وسوف لا نبالغ إذا قلنا : إن القرآن معظمه يحتوي على بيان الآخرة وشرح نواحيها المتعددة .

ولا يكتفي القرآن بدعوة الناس إلى الإيمان بالآخرة ، بل إنه يؤكد لهم أن الآخرة حاجة ملحة للإنسان لا يستغني عنها ، وأن إنكارها يؤدي إلى نتيجة وخيمة ، والشبهات التي تثار حولها من قبل المتمردين والجهال لا تعدو السفاهة والتعنت .

ثم يبين القرآن ما يواجه الإنسان في الآخرة بشيئ من التفصيل ، إنه يشير إلى الجائزة التي ينالها المتقون المؤمنون ، والنعمة والسعادة التي يتلقاها الأبرار الصالحون ، وإلى العذاب الذي يذوقه العصاة المتمردون ، فما أجمل الجنة ونعيمها ، وما أسوأ الجحيم وآلامها .

ما هي الحاجة إلى الآخرة؟ :

يجب أن نتأمل في بيان القرآن حول الآخرة وكونها حاجة للإنسان لا مناص منها ، وملخص ما يقول القرآن : إن الدنيا إذا كانت هي المرحلة الأولى والأخيرة للحياة ولا تكون وراءها حياة فإن ذلك يعني أن هذا الكون وما فيه من آيات وعبر عبث من الأعمال ، ولا يمكن تأويل خلق الكون بما يتفق وشأن خالقه العظيم .

ولكي يتضح لنا هذا القول نقول : إن قليلاً من التدبر في هذا الموضوع يوضح أن الإنسان في هذا الكون كمثل صاحب البيت في بيته الذي يحتوي عدا أفراد البيت على كثير من الأثاث وأشياء الأكل والشرب والراحة والكماليات وأدوات التجميل والزينة ، ولكنها لا تكون غاية بنفسها ، بل إنما الغاية من وجودها أن يستفيد منها الإنسان حسب حاجته ، كذلك هذا الكون وما فيه من خلق ، كله للإنسان ، كأنه هو الغاية الأصيلة في الكون ، والكون لم يُخلق إلا لخدمة الإنسان ، ولا شك في أن حياته هذه الزائلة لا تعدو الأحلام والخيال ، ثم لا نجد من يكون راضياً بحياته الدنيا إلا قليلاً جداً ، ولولا حياة الآخرة — فيما أعتقد — التي أخبر بها الأنبياء عليهم السلام ، والتي تحدث عنها القرآن بإيضاح لم يجد

الإنسان مبرراً لخلقه في هذه الدنيا ، وجاز له أن يتمنى ويقول : يا ليتني لم أخلق .

وأنا أتقدم خطوة أخرى فأقول : لولا اعتقادي بحياة الآخرة لقمت باحتجاج على خلقي في هذه الدنيا ، والمعاناة من همومها وآلامها .

وعلى كل ، فإن الحياة في هذه الدنيا — إذا تمتع بالحياة الطبيعية أحد — إنما تمر بمرحلة الطفولة أولاً التي تعتبر مرحلة اللاشعور واللامبالاة ، وتتبعها مرحلة الشباب التي يحلم فيها الإنسان بأحلام وأمانٍ معسولة يريد أن يراها متمثلة في حياته ، ولكنه قلما ينجح في ذلك ، وتواجهه مرحلة الشيخوخة حينما تتمايل طبيعته إلى الضعف والاضمحلال ، وتتداعى أعضاؤه وتنهار قواه ، وأخيراً يلاقي أجله ويمضي من هذه الدنيا .

هذه هي حياة الإنسان الدنيوية ، فهل لأجل ذلك فقط خُلق هذا الإنسان ؟ وأنشئ له هذا الكون وقامت السماوات والأرض ؟ ولاشك أن خلق هذه الكائنات وما فيها من خلق وأمر ، وحتى خلق الإنسان أيضاً ، لا يحمل كبير نفع إذا لم يكن بعد الحياة الدنيا حياة أخروية خالدة ، تلك التي أنبأ بها الأنبياء عليهم السلام ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى في أسلوبه المعجز البليغ ، فقال : "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ" [المؤمنون : ١١٥- ١١٦].

والحاصل أن الله الذي هو مالك الملك الحقيقي ورب العرش الكريم لم يخلق الإنسان عبثاً دون أن يتوخى منه غاية ، بل إنه خلقه لغاية مهمة

جداً ، وهي تهيئة العدة وأخذ العتاد في هذه الحياة للحياة الأخيرة والحضور أمام الله في الآخرة التي هي مرحلته الأخيرة والعالية ، ولذلك فإن حياة الإنسان الدنيوية القصيرة دليل على حياة الآخرة الخالدة التي أفاد بها الأنبياء عليهم السلام ، وأخبر بها القرآن ، ولولاها لكان خلق الإنسان في هذا الكون نوعاً من العبث ، تعالى الله عن ذلك .

أشار القرآن إلى هذه الحقيقة فقال : "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ" [الدخان : ٣٨] ، وفي سورة القيامة : "أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى" [القيامة : ٣٦] ، والحقيقة أن خلق الإنسان وحياته في هذه الدنيا لا يحمل قيمة ما لم نؤمن بالجزاء والعقاب ، وما لم نعتقد أن الحياة في هذه الدنيا وسيلة للحصول على حياة الآخرة الخالدة ونعيمها الدائم ، أما إنكار حقيقة الآخرة فيؤدي حتماً إلى اعتبار أن أمراً عظيماً كخلق الإنسان والكون لا يعدو عبثاً ولهواً ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

حجة أخرى للقرآن على ضرورة الآخرة :

من ناحية أخرى أيضاً ألقى القرآن الضوء على ضرورة الآخرة وخاطب الفطرة البشرية والعقل البشري الصحيح في أسلوبه الرائع البديع ، وقال بلسان حاله : أيها الناس ! إنكم ترون أن الدنيا تحمل كلا من نواحي الخير والشر ، ولكن عدل الله لا يقتضي أن يفرض على الناس الثواب والعقاب في هذه الدنيا ، ولذلك فلابد من أن تكون هناك حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ، حيث ينال المحسنون والمسيئون جزاء أعمالهم ، ولولا الأمر هكذا لاتهم الناس خالق هذا الكون .

ولكي نوضح الموضوع نقول : إننا نرى جميعاً أن في هذا العالم كثيراً من ذوي الجرائم المختلفة يعيشون فيها ، ويمارسون أنواعاً من الظلم والاضطهاد ، والجرائم الإنسانية والخيانات ، ويتنعمون في الدنيا ، ثم يموتون وقد خلفوا لأهلهم ، وأولادهم مقداراً من الثراء واللذات ، بالعكس مما يعمله الصالحون من عباده الذين يقضون كل لحة من حياتهم في التقوى والإخلاص ، لا يظلمون أحداً ولا يغدرون ، ولا يغمطون حقاً ، بل يعبدون الله ويخدمون خلقه ، ولكنهم على رغم ذلك لا يتنعمون في الحياة ولا يتمتعون بالراحة والعافية التامة حتى إنهم يفارقونَ الدنيا وهم في أضيق حال وأضنك عيش ، بدون أن يلاقوا مقابل ما عملوه من أعمال الصلاح والتقوى جزاءً أو عطاءً .

فإن لم تكن هناك حياة أخرى تضمن الثواب والعقاب للمحسنين والمسيئين بما عملوه في هذه الحياة من خير أو شر لجرَّ ذلك إلى اتهام الله بالظلم والعدوان — وعياذاً بالله — وبالجور وبخس الحقوق وأعوذ بالله من ذلك ، وبأن الأعمال الصالحة والفاسدة كلها سواء في عينه ، فلا قيمة للتقوى والصلاح ، ولا مؤاخذة على الكفر والاعتداء ، ولاشك أن العقل السليم لا يقبل ذلك أبداً ، فإن هذا الأسلوب من المعاملة لا يجدر بإنسان صالح ، فضلاً عن أن نتصور شيئاً من ذلك في الله سبحانه وتعالى ، وذلك لأن الله سبحانه إنما يعطي كل ذي حق حقه ، ويفرق بين الصالح والفاسد ، والسيء والحسن ، وعن هذا المعنى يعبر القرآن في أسلوبه البليغ ويقول : "أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ" [القلم : ٣٥] ، وفي سورة ص : "أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ" [الآية : ٢٨] ، وقال في سورة الجاثية : "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" [الآية : ٢١].

ونستطيع أن نعبر عن حجة القرآن هذه الأخرى على وجود الآخرة بأن نقول : إننا نرى أن لكل شيء مادي خواص وآثاراً مثلاً النار ، فإنها تحمل خاصية الإحراق والحرارة ، والماء فيه طبيعة الإبراد والإطفاء ، وكذلك كل شيء ينبت من الأرض يحمل طبيعة وخاصية ، حتى إن حشرات الأرض لا تخلو من الخواص ، وكل عمل مادي للإنسان والحيوان كليهما له آثار ونتائج ، فمثلاً تشبع المعدة بالأكل وينتهي الجوع ، والماء يزيل العطش ويورث الري ، والعمل يؤدي إلى التعب والنصب ، والطعام الخشن الجاف يسبب الألم في المعدة ، والمسهل من الأشياء يفضي إلى الإسهال .

فلابد من أن تكون أعمال الإنسان الأخلاقية (وهي أهم من أعماله المادية وأقدم عليها) حاملة للنتائج والآثار ، مثلاً هناك شخص يؤثر غيره على نفسه في الطعام والشراب ، ويقوم بخدمة الفقراء والمساكين ، ويعود المرضى ويخدمهم بدون أن يتوقع مقابل أعماله وخدماته جزاء في هذه الدنيا ، ولكن أعماله هذه لا تذهب سدىً ، بل إنه يجني ثمارها اليانعة الحلوة ، عاجلاً أو آجلاً ، وكذلك من يسرق ويقطع على الناس الطريق أو يقطع أعناق الناس ويظلمهم ويغمط حقوقهم ، ويرتشي ويؤذي الجيران والأقرباء وما أشبه ذلك ، ولا يواجه في ظاهر أمره نوعاً من العقاب أو المؤاخذة في الدنيا ، ولكن العقل البشري يتأكد بأنه لابد من أن ينال جزاء أعماله السيئة .

ولا يقبل العقل السليم أن الإنسان الذي هو أشرف الخلق كله وأهم الكائنات كلها تخلو أعماله من تأثير نتائج ، إذ لو كان الأمر هكذا لكان ذلك خلافاً لطبيعة هذا الكون ومعارضاً لحكمة الله التي خلق عليها هذا الكون ، يقول القرآن ويعلن مدوياً "وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" [الجاثية : ٢٢] .

شبهات سخيفة حول الآخرة

لقد بيَّن القرآن حقيقة الآخرة وأكد ضرورتها بالدليل ، ودعا الناس كافة إلى الإيمان بها ، كما أنه رد على تلك الشبهات السخيفة والوساوس الشيطانية التي تثار في أذهان العامة ، أو تقوم بدعايتها ونشرها في أوساط الجماهير بعض الشياطين ليصدوهم عن الإيمان والحق .

وقد تصدى القرآن لذكر هذه الوساوس والشبهات في آيات متعددة ، ثم رد عليها في أسلوبه المقنع ، واستدل على وجود الآخرة بنظائر وأمثلة تبعث الطمأنينة والاقتناع في النفس ، ولا يبقى مجال للشك أو الإنكار ، إن أول شبهة عن الآخرة وأشهرها لدى المنكرين هي شبهة استحالة أن يحيي الميت ويبعث من جديد ، لأنهم لم يروا أيَّ مثال لذلك في الدنيا ، فكانت هذه الشبهة تختلج في نفوسهم ؛ وتخز قلوبهم ، وهي التي كررها العرب الجاهليون ، وكان المنكرون للآخرة لا يزالون يكررونها إلى اليوم ، يتحدث القرآن عن منكري الآخرة في زمن نزوله : "بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" [المؤمنون : ٨١-٨٢] ، وفي سورة النمل : "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ" [النمل : ٦٧] ، ويتحدث في آية بلسان المنكرين : "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ" [ق : ٣] .

والحقيقة أن منكري الآخرة لا يستندون في ذلك إلى دليل ، فلا يستطيعون أن يثبتوا استحالة وجود الآخرة (التي أخبر بها الأنبياء عليهم

السلام والكتب السماوية) بأي حجة ، وجُل ما يقول هؤلاء : إن البعث والنشور بعد ما مات الإنسان وكان تراباً مستحيل بدون شك ، إذ لم يمر بالإنسان أيٌّ مثال لذلك ، ولكن العارف بذات الله وصفاته الذي تدبر في هذا الكون وتفكر في الخلق والأمر ، يعتبر مثل هذا التفكير مبنياً على مجرد الجهل والسفاهة .

واتخذ القرآن هذا الأسلوب السهل لإقناع المنكرين بالآخرة ، وصدقهم فيما يقولون من أن البعث إنما هو شيء كبير وصعب ، ولكنه سهل هيِّن على الله الحكيم الخبير القدير الذي خلق الكون وما فيه من آيات بينات ، كما أن القرآن يلفت أنظارهم إلى دلائل الحياة بعد الموت ونظائرها في هذا العالم المادي ، ويطلب منهم أن يفكروا فيها ، ليتحقق لهم كيف أن الله خلقهم من ماء مهين ، وكيف أحيا الأرض بعد موتها بالمطر ، وحوَّل الأراضي الجافة القاحلة إلى واحات وجنات ؛ إن قليلاً من التفكير في هذه الناحية يحل مشكلة الحياة بعد الموت ، ويزيل كل استغراب واستحالة .

الرد على شبهات المنكرين بالآخرة :

إن القرآن ألقى ضوءاً لامعاً على هذا الموضوع مراراً وتكراراً ، ودفع توهم المنكرين في آيات كثيرة ، ولنقرأ بعض الآيات في هذه المناسبة ، فقد قال في آخر سورة يسين يخاطب عقول المنكرين ويرد على شبهات ووساوس يثيرها الناس حول الآخرة بالإشارة إلى قدرة الله المطلقة ، يقول :

"أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" [يسين : ٨١- ٨٢] ، يعني أن الله تكفيه إشارة كلما أراد أن يخلق شيئاً أو يوجده ، فلا مانع له من أن يحيي الأموات ويخلع عليهم لباس الحياة بعد موتهم ، يقول في سورة الروم : "وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [الآية : ٢٧] .

وفي سورة الحج : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ" [الآية : ٥- ٧] .

إن هذه الآيات تشير إشارة واضحة إلى أن من يشك في البعث ، ولكنه يريد أن يفهم الموضوع على حقيقته فإنه إذا تأمل في خلقه ومن زمن طفولته إلى كهولته والتغييرات التي يمر بها من غير أن يقدر على شيء من ذلك ، وكذلك إذا فكر في التغييرات التي تلحق الأرض من موت الجفاف والجدب إلى حياة الخصوبة والزراعة والإنبات بعد ما ينزل المطر من السماء زالت كل شبهة تراوده حول الحياة بعد الموت ، وعاد إليه اليقين والإيمان

بالآخرة والبعث ، يقول الله في سورة الروم : "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا" [الروم : ١٩] ، "إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [الروم : ٥٠] ، وجاء في سورة فصلت : "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [فصلت : ٣٩] ، وفي سورة الزخرف : "وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ" [الزخرف : ١١] .

والحق أن الأسلوب السهل الذي اختاره القرآن لعرض هذا الموضوع على الناس إنما راعى فيه عقول العامة ، وأراد أن يؤيد هذه القضية بدلائل مفهومة مؤثرة لا تترك أيَّ شك يتطرق إلى القلوب ، أو شبهة تساور النفوس ، وتعود المسألة واضحة نيرة حتى يعتبر عجباً إن عجب منها أحد ، وإلى ذلك يشير القرآن فيقول : "وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ" [الرعد : ٥] .

ماذا في الآخرة ؟

بما أن القرآن بالنظر إلى موضوعه الأصيل وغايته التي يرمى إليها صحيفة تتضمن الإنذار والتبشير ، والترغيب والتحذير ، والموعظة والنصيحة ، وليس كتاب فلسفة أو كلام ، يصرف النظر عن الأسلوب الجدلي كثيراً ويتعرض للوقائع والأحداث التي يواجهها الإنسان في الآخرة والتي تبعث في القلوب خشية الله ، والاهتمام بالآخرة ، ولاشك أن القرآن إنما يحتوي معظم أجزائه على هذا المعنى .

مراحل الآخرة :

إن الموت معناه الانتقال من هذه الدنيا إلى الآخرة ، وعلى هذا فإن سفر الآخرة إنما يبتدئ بالموت ، ولكن الفترة بين اليوم الذي مات فيه الإنسان إلى قيام الساعة التي تسمى بالبرزخ ، تماثل بالنسبة إلى الآخرة فترة الحمل بنسبتها إلى هذا العالم المادي ، ولو أن حياة الآخرة الأصيلة تبتدئ من يوم القيامة ، ومنذ ذلك يظهر للناس العقاب والثواب ، غير أن المدة بين الموت والقيامة مرحلة برزخية تنقضي في الانتظار شأن الجنين الذي يمكث في بطن الأم مدة لكي يأتي إلى هذا العالم المادي ، ولذلك فإن القرآن لم يذكر هذه الفترة البرزخية بين الموت وقيام الساعة إلا بإجمال وإيجاز .

أما الساعة والحشر ، والحساب ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ، فقد تصدى لذكر كل من هذه المعاني في مواضع كثيرة جداً ، وبتفصيل وإيضاح بالغين ، وبأسلوب يكفي لبعث مخافة الله ، والاهتمام بالآخرة في القلوب ، ولاشك أنه نسيج وحده في الإعجاز من هذه الناحية كسائر نواحيه الأخرى ، وقد تحدث في سورة المؤمنون عن مراحل الآخرة التي يمر بها الإنسان بنوع من الإيجاز فقال : "حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ" [الآية : ٩٩- ١٠٤] .

وتحدث في سورة "ق" عن الموت والقيامة بهذا الأسلوب :

"وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ" [الآية : ١٩- ٢٢].

وذكر في سورة النمل عن القيامة وأهوالها فقال : "وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ" [الآية : ٨٧- ٨٨].

وصوَّر أهوال القيامة والفزع الذي يستولي على النفوس في ذلك اليوم ، فقال في سورة الحج : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ" [الآية : ١- ٢].

وذكر في سورة الكهف كيفية عرض المجرمين على الله تعالى وحالتهم في ذلك الوقت : "وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا" [الآية : ٤٧- ٤٩].

وتصور الآيات التالية منظراً من مناظر القيامة : "وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ" [المؤمن : ١٨-١٩] ، ولنقرأ مدى ما يواجهه المجرمون من الخزي والذلة والعجز يوم القيامة : "الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" [يسين : ٦٥].

وقد أشار القرآن في آيات متعددة إلى أن شدائد القيامة وأهوالها تشغل كل إنسان بما لا يسمحه بالتفكير في غير ذاته ، ويكون لكل امرئ شأن يغنيه عن الالتفات إلى غيره ، وما أهول تصوير ذلك في الآيات الأخيرة من سورة عبس قال : "فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ" [الآية : ٣٣- ٤١].

قلنا : إن جزء كبيراً من القرآن يتضمن ذكر أهوال يوم القيامة وما فيه من حشر ونشر ، ولكننا لم نذكر هنا إلا آيات متعددة لها صلة بالموضوع ، غير أن هناك سوراً مستقلة تتحدث عن هذا الموضوع وحده كسورة الواقعة ، وسورة الحاقة ، وسورة القيامة ، وسورة التكوير ، وسورة الانفطار ، وسورة الانشقاق ، وسورة الغاشية ، وهي تختص بذكر القيامة وأحوال الآخرة ومناظرها ، ونحن نكتفي بذكر سورة وجيزة تحتوي على ذكر القيامة وما يصحبها من أهوال :

"إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" [الزلزال : ١- ٨].

مقر الإنسان في الآخرة!

الجنة والنار :

الحقيقة التي صرح بها جميع الأنبياء والرسل وجميع الصحف السماوية هي أن الحياة الحقيقية الأصيلة إنما هي حياة الآخرة ، وأن مقر الإنسان الدائم هو الجنة أو النار ، والجنة آخر مظهر من مظاهر رحمة الله وفضله ورأفته بعباده ، حيث تظهر صفاته الجمالية بأكمل أشكالها ومظاهرها ، وكذلك النار آخر مظهر من مظاهر قهر الله وغضبه حيث تبدو صفاته الجلالية بأتم ألوانها وصورها .

وكل ما أخبر به الأنبياء والرسل عن الجنة والنار إنما هو حق لا مراء فيه ، وسوف يظهر على حقيقة ما بينوه وأخبروا به الناس ، وليس ذلك مجرد تهديد أو ترغيب ، كما يتظاهر الكبار للأولاد والصغار إذا طلبوا منهم عملاً أو أرادوا منهم الامتناع عن عمل ، وهل هناك سفاهة أشد من أن يعتقد أحد أن تصريح الأنبياء حول الجنة والنار ليس إلا نوعاً من التهديد والترغيب — لكي يقبل الناس على عمل الخير ويتجنبوا الشر — إذ لا وجود لهما في الواقع — ولا فرق بين من يعتقد أن بيان الأنبياء حول ذات الله وصفاته أو عن القيامة وأهوالها إنما هو لمجرد الإنذار والتعليل ، وليس لها أي حقيقة .

وبما أن القرآن كتاب الله الأخير ، وليس بعده أي كتاب ينزل من الله لهداية الناس ، يتضمن بيان الجنة والنار بتفصيل وإيضاح كسائر المعاني والمحتويات الأخرى ، وقد أكثر القرآن ذكر هاتين الحقيقتين بما

فيه كفاية لبعث الدوافع الخيرة في النفس ومنعها عن الوقوع في المنكرات والسيئات ، بشرط أن لا يكون القلب قد فقد حياته وشعوره .

فلنقرأ آيات تتضمن ذكر الجنة والنار ، وهذه آيات تتحدث عن النار وعذابها ، جاءت في سورة التحريم : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" [الآية : ٦] ، وفي سورة الكهف : "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا" [الآية : ٢٩] ، وقال تعالى في سورة محمد : "وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ" [الآية : ١٥] ، وجاء في سورة المؤمن : "الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ" [الآية : ٧٠- ٧٢] ، وفي سورة الحج : "فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ" [الآية : ١٩- ٢٢] .

ووصف في سورة الدخان "الزقوم" الذي يأكله أصحاب النار ، فيغلي في بطونهم كغلي الحميم : "إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ" [الدخان : ٤٣- ٤٨] ، وقال في سورة إبراهيم يصف المجرمين وما يقاسونه من عذاب : "وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ"

[الآية : ١٦- ١٧] ، وفي سورة فاطر "وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ" [الآية : ٣٦- ٣٧] ، وفي سورة الزخرف "إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ" [الآية : ٧٤- ٧٦].

واقرأوا آيات عن الجنة ونعيمها وبيان ما فيها من قرة أعين ، فقد قال تعالى في سورة آل عمران يصف الجنة وبعض نعيمها : "لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" [الآية : ١٥] ، وفي سورة محمد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ" [الآية : ١٥] ، وجاء في سورة الحجر "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ" [الآية : ٤٥- ٤٨].

وقال في سورة يسين : "إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ" [الآية : ٥٥- ٥٨] ، وفي سورة الزخرف : "يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا

مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" [الآية : ٦٨- ٧١].

وجاء في سورة فاطر أن أصحاب الجنة حينما يرون ما يحفهم من نعيم الجنة ولذاتها ، ويرون ما منّ الله به عليهم من فضله ورحمته لا يتمالكون أنفسهم ، وتنطلق ألسنتهم بالحمد والشكر "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ" [الآية : ٣٤- ٣٥].

وبالتأمل فيما جاء من وصف جهنم في القرآن يبدو أن الشقاء والآلام التي يحذر منها الإنسان في هذه الدنيا ويتوقاها بحكم طبيعته يجتمع كل ذلك في جهنم أكثر مما في هذه الدنيا آلاف المرات والأضعاف ، إن القرآن الكريم يهدف من ذكر النار وآلامها إلى أن الذين لا يستطيعون تحمل الآلام والعذاب في هذه الدنيا ليوم واحد يجب عليهم أن يتجنبوا المعاصي والذنوب التي تهديهم إلى طريق جهنم حيث يبتلون بعذاب الخلود وشقاء الأبد .

وكذلك موضوع الجنة في القرآن ، يشير إلى أن الإنسان يجد فيها كل نعمة ولذة بشكلها النهائي ، لأنه بحكم طبيعته ميَّال إلى الراحة واللذة ، وهو مفطور على حب النعيم والعافية ، فينبغي أن يتخذ طريق العمل الصالح وطاعة الله والحصول على مرضاته ، الذي يؤديه إلى الجنة ، حيث ينال كل ما يرغب فيه من نعيم وسعادة ، وكل ما يتمناه من لذة وراحة وعافية ، ويخلد فيها من غير انقطاع ولا فناء .

إن منهج الحياة الذي يدعو إليه الإسلام يقوم على معتقدات أساسية .

أولاً : الإيمان بذات الله سبحانه وتعالى والاعتقاد بصفاته في مظاهرها الحقيقة .

ثانياً : الإيمان بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، واعتبار الآخرة مظهراً من مظاهر صفة عدل الله وشأن حاكميته ، ولا قيمة لهذه الدنيا وما فيها من خلق وأمر بغير الآخرة ، بل إنها تعود عبثاً من الأعمال .

وقد أسلفنا هاتين العقيدتين الأساسيتين فيما سبق من الكلام حول هذا الموضوع ، وسنبين عقيدة ثالثة ، وهي الإيمان بالرسل ، الذي يدعو إليه القرآن ويعتبره أساساً لدعوته وتوجيهاته .

ينبغي أن ننهي هذا الموضوع بهذا الدعاء : "اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ، ونعوذ بك من غضبك والنار" .

عقيدة النبوة والرسالة

كما يتحدث عنها القرآن

الأساس الأول للمنهج الذي يدعو إليه القرآن كافة الناس هو الإيمان بالله وصفاته والاعتراف بربوبيته ووحدانيته ؛ والأساس الثاني هو الإيمان بالحياة الآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب ، ولكي تتمثل صفات رحمة الله وعدله وحكمته وحاكميته لابد من الآخرة التي لا تكتمل بدونها هذه الدنيا ، وتظل كشيء زائف لا قيمة له ، وكعبث من الأعمال التي لا تعود إلى صاحبها بنفع ، وقد أسلفنا ما جاء في القرآن حول هذين الأساسين بنوع من التفصيل .

أما الأساس الثالث العقائدي المهم الذي يدعو القرآن إلى الاعتقاد به ، ويعتبره أصل تعاليمه ودعوته ، فهو الإيمان بالرسالة والنبوة ، الذي يعني قبل كل شيء الاعتراف بحقيقة أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد خلق الأرض التي تنبت ، والشمس التي تضيئ وتدفئ ، والهواء والماء وكل حاجة من حاجات الإنسان لسد مطالب الحياة وحوائجها ، فلا ريب أنه بعث الأنبياء والرسل لتوجيه العلم الصحيح بذاته وصفاته عن طريقهم إلى الناس كافة ، وتربيتهم على ذلك المنهج القويم الذي يؤديهم إلى رضا الله ويكرمهم بالنجاح الحقيقي ، فاختاره الأنبياء لكل زمن وفي كل بقعة من الأرض وفقاً لمقتضياتهما وحاجاتهما ؛ وقد كان هؤلاء الرسل ممن اصطفاهم الله لرسالته ، فكان كلُّ ما بلغوه إلى الناس كلاماً صادقاً من وحي الله .

القرآن يُلح بكل تأكيد وقوة على الإيمان بالرسل كلهم على اختلاف أزمنتهم وأممهم ، ويطلب الشهادة بصدقهم وأمانتهم ، ونزاهتهم وعفتهم والطاعة لهم كأنبياء الله ورسله ، كل في عهده ونطاقه .

وكذلك يصرح القرآن بانتهاء عهود الرسل والأنبياء كلهم ، وبأن آخرهم الذي ختم الله به النبوة هو محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يعلن القرآن أن التعاليم التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن جميع التعاليم التي جاء بها الأنبياء السابقون ، وكانت لزمن خاص وأمة خاصة ، ولكن الكتاب الذي أنزل عليه يحتوي على جميع ما سبق في تعاليم السابقين من الأنبياء ، ولذلك فإن اتباعه صلى الله عليه وسلم يعني اتباع جميع الأنبياء ، وإنكار رسالته معناه إنكار الرسل كلهم ، ثم إن القرآن يعلن أيضاً أن التعاليم التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ من الكمال والخلود إلى أبلغ مدى ، وهي تكفي للأبد ، وأن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظها فلا تتناولها يد التحريف والتزييف أبداً، ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو خاتم هذه السلسلة المقدسة مع كونه النبي الكامل .

هذا هو ملخص دعوة القرآن عن النبوة والرسالة ، ولنقرأ الآن عناصر هذه الدعوة وأجزاءها في آيات القرآن ، فقد جاء في سورة النمل "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً" [الآية : ٣٦] ، وفي سورة النساء بعد ذكر عدد من الرسل السابقين "وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ" [الآية : ١٦٤] ، وفي نفس السياق قال : "فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ" ، وذلك لأن الذين لا يؤمنون بالرسل كلهم بل يفرقون بينهم ،

أو يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالرسل ، أو يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، فإن القرآن يرفض هذا النوع من الإيمان ، ويعتبر أصحابه كافرين ، يقول في سورة النساء : "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" [الآية : ١٥٠- ١٥٢] ، ويقول القرآن : إن الله سبحانه لم يرسل من رسول ، مهما كان زمنه وقومه وبلاده ، إلا وقد أوجب على الناس طاعته ، وفرض على الذين أرسل إليهم امتثال أوامره ، كما جاء في سورة النساء أيضاً "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ" [الآية : ٦٤] ، وقال في موضع آخر من نفس السورة وذكر أن طاعة الرسول ترادف طاعة الله في الحقيقة ، لأن الأحكام والتعاليم التي يأتي بها الرسول إنما تكون من عند الله ، وإن هو إلا واسطة بين الله والعباد في إبلاغ رسالته إليهم "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ" [الآية : ٨٠].

ولما كانت طاعة الرسول تعني طاعة الله ، كانت مشاقّة الرسول والمجادلة معه مشاقة الله والتمرد على أحكامه كذلك ، ولذلك جمع القرآن بينهما في آيات كثيرة ، وأنذر من عقاب ذلك ونقمته الله فقال : "وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" [الأنفال : ١٣] ، وفي سورة الطلاق : "وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا

خُسْرًا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ" [الآية :٨-١٠].

هذه مطالبة القرآن المبدئية عن الإيمان بالرسل والرسالة ، وإنذاره الذي يوجهه إلى الناس في هذا الموضوع ، ثم يعلن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لهذا العهد الأخير الذي يمتد إلى القيامة ، ويتحدث عن نوعيتها الخاصة فيقول في سورة الفتح : "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ" [الآية : ٢٨- ٢٩] ، ويتحدث عن خصيصة القرآن وميزته الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بعد الحديث عن نبوة موسى وعيسى عليهما السلام وما أنزل عليهما من الكتاب "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ" [المائدة : ٤٨] ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإعلان رسالته في العالم البشري كله فقيل : "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" [الأعراف : ١٥٨].

وفي سورة سبأ وجه القرآن مسؤلية الإنذار والتبشير للنوع البشري كله إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر غاية إرساله إلى الناس فقال : "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا" [الآية : ٢٨] ، أما في سورة آل عمران فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمناداة في الناس وإخبارهم بأنَّ الطريق الوحيد للفوز بحب الله ورضاه ، والظفر برحمته ومغفرته هو اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك بأن يتخذ شريعته التي جاء بها منهجاً لحياته ، فإن من حاد عن طريقه وانحرف عن جادته حرم

رحمة الله وحبه ويقول : "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ" [آل عمران : ٣١- ٣٢] .

وأعلن في سورة الأحزاب أن النبوة ختمت على النبي صلى الله عليه وسلم الذي هوخاتم النبيين ، فلا نبي بعده ، ومعنى ذلك بكل بداهة أن الهداية التي جاء بها عامة الناس كافة إلى يوم القيامة ، إذ ليس هو نبي أمة أو زمن خاص ، "وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" [الآية : ٤٠] .

كل هذه التصريحات التي وردت في الآيات السالفة الذكر حول نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته العامة الباقية وخاتميته ، صدقها الواقع ، وأيدها التاريخ .

إن الصفات والخصائص التي أودعها الله سبحانه في أنبيائه الصادقين كإبراهيم وإسحاق وداود ، وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وعيسى إلى غيرهم من الأنبياء والرسل عليهم السلام ، والتي كانت أسطع برهان على نبوتهم قد جمع الله كلها وأكثر منها في شخصية سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد شهدها العالم بعين الواقع والحقيقة ، ودونها التاريخ بكل صدق وأمانة ، ويستطيع كل إنسان يجهل هذه الحقيقة أن يطلع عليها عن طريق هذا التاريخ النزيه الأمين الذي يتضمن سيرته صلى الله عليه وسلم .

كما أن التعاليم التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم يصونها الكتاب والسنة ، وهي تبلغ من الاعتدال والكمال إلى درجة تشهد أنها

منهج شامل للنوع البشري كله ، ودستور دائم للشعوب كلها ، ونظام خالد للعالم كله .

ومما يشهد على أن النبوة ختمت عليه صلى الله عليه وسلم أنه لم يبعث نبي ولا رسول في أي بقعة من العالم ولا في جزء من الأرض منذ ذهاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي خلال نحو أربعة عشر قرناً ، على رغم تقدم العالم في السرعة والمدنية ، بخطى حثيثة ، وانتهاضه في العلم والتقنية ، وهي لا تزال جديدة مثلما كانت في أول يومها ، من غير أن يطرأ عليها البلى والقدم ، وصالحة لهداية البشر وإصلاح الأمم ، وهي خالدة إلى يوم القيامة ، تصلح الشعوب وترشد الأمم ، وتشق الطريق إلى كل سعادة ، وتنتهي بالإنسان إلى رضا الله ونعيم الجنة في الأخير بمشيئته تعالى .

فيا ليت الذين لم يفكروا في هذه الحقائق الساطعة إلى الآن وُفقوا إلى التأمل فيها بجد وصرامة ، وبذهن صاف محايد ، وعقل متفتح ، حتى يحظوا بتوثيق الصلة الصادقة بهداية الله في هذا العصر ، ورسالة السماء التي أنزلت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل ١٤/قرناً .

الباب الثاني

العبادات

عبادة الله : مفهومها وأنواعها

من الأمور الأساسية التي تلتقي عليها الأديان والديانات كلها هو أن يعبد الإنسان ربه ، والعبادة تعني تلك الأعمال التي يقوم بها العبد طلباً لرحمة ربه وابتغاء مرضاته وإظهاراً لعبوديته وخنوعه لله تعالى ، وكشهادة عملية للاعتراف بكبرياء ربه وعظمته ، كالصلاة والزكاة ، والصيام والحج ، والصدقات والذكر والتلاوة والتضحية ، وما إلى ذلك في الإسلام من أعمال وعبادات ، ولا يقوم بها العبد إلا لكي يرضي به معبوده ، ويتناوله برحمته وعطفه ، وليتزكى بها قلبه وروحه ، ويسعد بالتقرب إلى الله .

تختص العبادات من بين سائر أعمال الإنسان بصلتها المباشرة بالله ، يعني أن العبادة لا تظهر من صاحبها إلا للحصول على رضا الله ، وإبداء الخنوع والعبودية أمامه ، وتوثيق علاقته به ، وبها وحدها يحظى الإنسان المخلوق من نطفة مذرة ، وتراب حقير ، بنعمة التقرب إلى الله ، والارتباط معه التي هي نصيب الملأ الأعلى في الواقع ، ولذلك طلبت الأديان كلها من أتباعها عبادة الله ، واعتبرها أقدس عمل وأطهره للانسان .

ولنا أن نقسم العبادات في ثلاثة أنواع : العبادة البدنية الخالصة ، والعبادة المالية الخالصة ، وما يتركب منهما .

فأما العبادة البدنية الخالصة فهي لا تكلف إنفاق المال ، وإنما لها علاقة بجسم الإنسان فحسب ، كالسجدة والصلاة ، والصيام ، والطواف بالبيت .

والعبادة المالية الخالصة يراد بها العبادات التي تؤدي بإنفاق المال في سبيل الله ، وهي لا تكلف عملا جسمانياً ، وذلك كالصدقة ، والإيفاء بالنذور التي تتعلق بالمال ، والتضحية ، وما إلى ذلك .

وأما العبادة المركبة من العبادتين المذكورتين فهي التي تكلف القيام بالجسم والمال كليهما ، كالحج والعمرة .

ولقد أمر الله عباده بجميع هذه العبادات عن طريق الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله إليهم ، وفي الكتب التي أنزلها معهم ، ولو كانت هذه العبادات تتغير في نظامها وأشكالها بتغير الأزمنة والأمم ، ولكنها كانت مطلوبة من الله إلى عباده في كل زمان وفى كل أمة كما يشير القرآن إلى ذلك ، ولا سيما الصلاة والزكاة (وأعني بالزكاة الإنفاق والصدقة في سبيل الله) كانتا من مهمات العبادة في كل شريعة ، ففي سورة الأنبياء يقول الله عزوجل بعد الحديث عن كثير من الأنبياء السابقين : "وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ" [الآية : ٧٣] .

وقال في سورة المائدة بعد ما ذكر عهد بني إسرائيل : "وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" [الآية : ١٢] ، وقال في سورة البينة بعد ذكر اختلاف أهل الكتاب وإنكارهم : "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ" [الآية : ٥] .

وعلى كل ، فإن القرآن أكد في آيات كثيرة أن العبادة ركن مهم للدين ، وهي مطلوبة من جميع الأمم عن طريق الأنبياء ، وذلك لأن الله سبحانه ، هل يحتاج إلى عبادتنا ، أو أنها تزيد من شأنه ، وأن ركوعنا وسجودنا ، وصدقتنا وإنفاقنا ينفعه شيئاً ؟ كلا ! بل لأنها تزكي نفوس العباد ، وتقوي صلتهم بربهم ، ولقد خص الله سبحانه في سورة الاحزاب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم الطاهرات بوصايا عديدة وختمها بالآية التالية : "وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا" [الأحزاب : ٣٣] .

ولا شك أن الأمم السابقة لم تؤمر بالعبادة ، وأننا لم نؤمر بها إلا لكي تتزكى بها النفوس وتتأهل للتقرب إلى الله ، ولنقرأ الآن آيات عديدة من القرآن تتضمن معنى الأمر بالعبادة ، فقد جاء في سورة الحج : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الآية : ٧٧] ، وفي سورة البقرة : "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ" [الآية : ٤٣] ، وفيها أيضاً : "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" [الآية : ١١٠] .

وقد جاء نفس المعنى بتقارب في اللفظ في سورة المزمل وغيرها من السور ، وقال في سورة إبراهيم : "قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ" [الآية : ٣١] .

ثم نتلو بعض تلك الآيات التي تبشر القائمين بالعبادة ، وتخبر برضا الله لهم وعطفه عليهم ، يقول في سورة الحج : "وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" [الآية : ٣٤- ٣٥] ، وفي سورة الرعد : "وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" [الآية : ٢٢- ٢٤] وفي سورة النور : "يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" [الآية : ٣٦- ٣٨].

وتحدث في سورة التوبة عن الصفات الخاصة بالعباد الذين وعدهم الله بالجنة فقال : "التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" [الآية : ١١٢] ، وقال في سورة المؤمنون : " قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ" [الآية : ١- ٤] ، بعد ما استفاض في ذكر عفافهم وأمانتهم وعدّ بعض فضائل أخلاقهم ، وجاء في سورة فاطر : "إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ" [الآية : ٢٩- ٣٠] ، ويتحدث في سورة السجدة عن

هولآء العابدين بأسلوب شيق : "تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [الآية : ١٦- ١٧].

وفي سورة الذاريات عند ما بشر القانتين من عباده بالجنة ونعيمها الذي يخصهم ، تناولهم الله بذكر أحوالهم قائلا : "كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" [الآية : ١٧- ١٩] ، ولنقرأ آية أخرى في هذا المعنى من سورة الأحزاب ، يقول الله تعالى : "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الآية : ٣٥].

إن هذه الآيات التي تلوناها عليكم تكفي ليعرف مدى تأكيد القرآن بعبادة الله ، والثواب الذي يعطي عليها العبد ، وهناك آيات تتناول الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم في تأدية العبادة أو إكثار العبادة ، نتلو عليكم عدة منها ، فقد جاء في سورة الحجر : "فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ" [الآية : ٩٨- ٩٩] وفي سورة طه : "فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى" [الآية : ١٣٠].

وبما أن العنصر الخاص للصلاة هو الحمد والتسبيح حتى إن القيام والقعود والركوع والسجود ، وأي جزء من أجزائها لا يخلو منها ، أمر في بعض الآيات بالصلاة باسم الحمد والتسبيح ، وكذلك هذه الآية التي تتضمن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وتأمره بأداء عبادة الصلاة في مختلف أجزاء الليل والنهار مع رجاء نتائجها وثوابها في الدنيا والآخرة بما ترضى به نفسه ، ويقول في سورة المزمل : "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا" [الآية : ١- ٤] ، وفي سورة الدهر : "وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا" [الآية : ٢٥- ٢٦] .

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات أيضاً باختلاف يسير في ألفاظها بالاشتغال بالصلاة والحمد والتسبيح في أوقات الليل والنهار كذلك وخاصة في الصباح والمساء ، ولو أن هذه الآيات تخص الخطاب بالرسول صلى الله عليه وسلم في ظاهرها ، غير أنها تعم الأمة بواسطته .

وأخيراً نقرأ سورة الكوثر[1] : "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ" [الآية : ١- ٣] .

إنها تشير إشارة واضحة إلى أن عبادة الله كالصلاة والفداء تكرم صاحبها بالعز والشرف في الدنيا أيضاً ، بشرط أن تكون عامرة بالروح المطلوبة وتحمل معناها الحقيقي ، لا مجرد صورتها .

---

1 الكوثر معناه : الخير الكثير ، وهو يحتوي على جميع نعم الدنيا والآخرة التي منحها الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أو يمنحه فيما بعد ، ومن جملتها حوض الكوثر ، ونهر الكوثر المذكوران في أحاديثه صلى الله عليه وسلم .

التقوى بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والنبوة

التقوى من الأمور التي يوليها القرآن أهمية بالغة بعد الإيمان بالله والآخرة والرسل ، والتي يعتبرها مدار السعادة والنجاح للإنسان ، وحقيقة التقوى تتلخص في أن يعيش العبد في غاية من الحيطة ، والاتقاء مما يؤدي إلى سخط الله والعذاب في الآخرة بعد ما آمن بالله واليوم الآخر .

قيل : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب رضي الله عنه (الذي كان يعتبر ممن لهم ميزة خاصة بفهم القرآن والتعمق إلى علمه) عن التقوى ، فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال : بلى ، قال : فما عملت ، قال شمرت واجتهدت ، قال : فذلك التقوى . (تفسير ابن كثير ١/ ٧١) .

والحقيقة أنه لا يمكن شرح التقوى بأبلغ من هذا ، أما الآيات التي تتضمن معنى التقوى وتؤكد الأخذ بها فكثيرة ، قد لا يأتي عليها الحصر ، ولكن نقرأ عدة آيات منها في هذه المناسبة : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" [آل عمران : ١٠٢] ، يعني أن الله الذي هو خالق كل شيء ومربيه ، والذي يملك زمام الموت والحياة ، ولا غاية لقهره وجلاله مع عطفه ورحمته ، ينبغي أن يتقيه المؤمنون حق تقواه ، ولا يفتروا عن حق طاعته لآخر لحظة من حياتهم ، وقال في سورة التغابن : "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا" [الآية : ١٦] ، وفي سورة الحشر "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" [الآية :

١٨] ، وفي سورة المائدة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الآية : ٣٥] .

لم يكتف الله سبحانه في هذه الآيات الأربع بتأكيد التقوى للمؤمنين وتعظيم حقها عليهم ، بل إنه أكد الأخذ بالتزاماتها ومقتضياتها أيضاً ، ففي الآية الأولى جاء التأكيد في الاستسلام والطاعة بعد اتخاذهم التقوى شعاراً لهم ، كما أكد نفس المعنى في الآية الثانية بقوله : "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا" [التغابن : ١٥] ، وفي الآية الثالثة وجه الإنذار بعد التقوى إلى محاسبة الأعمال وتقديم الزاد للآخرة بقوله "وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ" [الحشر : ١٨] ، وكذلك قوله "وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ" [المائدة : ١٣٥] وفي الآية الرابعة ؛ يشير إلى الأخذ بالأعمال الصالحة والطاعة والمجاهدة التي تؤدي إلى رضا الله والتقرب إليه ، ثم بشر في آخر الآية بقوله "لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" ، بفلاح أهل التقوى الذي يتضمن فلاحي الدنيا والآخرة جميعاً .

وقد فصل الله في مآت من آيات القرآن معنى الفلاح الذي يحصل للمتقين في الدنيا والآخرة بفضل تقواهم ، ولنقرأ آيات من هذا المعنى ، ولنبدأ بالآيات التي تبشر المتقين بالجنة ، جاء في سورة آل عمران "لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" [الآية : ١٥] ، هذه الآية لا تنفرد ببشرى الجنة ، بل تنطوي على بشرى الرضوان أيضاً ، وهو أعظم من جميع النعم في الدنيا والآخرة ؛ كما يقول عنه القرآن نفسه "وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ" [التوبة : ٧٢] ، وقال في سورة النحل : "وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ

الْمُتَّقِينَ" [الآية : ٣٠- ٣١] ، وفي سورة القمر : "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ" [الآية : ٥٤- ٥٥] .

يا سبحان الله ! ما أعظم حظ الذين سيتمتعون بقرب من الله يختص بهم مع تمتعهم بالجنة ونعيم الآخرة .

كانت هذه الآيات تتضمن البشرى التي يلقاها العبد في آخرته ، ولكن نقرأ الآن بعض تلك الآيات التي تحمل بشارة فضل الله ونعمته في هذه الدنيا عدا الجنة والمغفرة إلى المتقين من عباده ، جاء في سورة الأنفال : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" [الآية : ٢٩] ، إن كلمة "فرقان" في هذه الآية تحمل مفهوماً واسعاً ، فإن قوة التمييز بين الحق والباطل التي يمنحها الله تعالى عباده المتقين ، والميزة التي يمتازون بها عن غيرهم والتي تملأ قلوب الناس بهيبتهم وإجلالهم ، ثم إن النصر الإلهي الذي يرافقهم في جميع شؤونهم ويضمن نجاحهم المعجز في أهدافهم العالية ، كل ذلك يستفاد من كلمة "فرقان" ، وقد وعد الله عباده المتقين بكل ذلك في هذه الدنيا كما تقول هذه الآية ، مضافاً إليه المغفرة والكفارة عن الذنوب التي لها علاقة بالآخرة .

وقال في سورة الأعراف : "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ" [الآية : ٩٦] ، هذه الآية تعلن مدوياً سنة الله وقانونه العام الذي ينطبق على كل قرية أو بلد يؤمن أهلها ويتخذون التقوى شعارهم فيفتح الله عليهم أبواب الخير ويدر عليهم بركات من السماء والأرض كلتيهما ، وجاء في سورة الطلاق بيان هذا اللطف من الله وفضله على أهل التقوى ؛ يقول "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ

مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ" [الطلاق : ٢] ، وقيل : إن المتقين هم أولياء الله ، فلهم البشرى في الحياة الدنيا والآخرة ، " أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ" [يونس : ٦٢- ٦٣] ، ولا كرامة أعظم من كونهم أولياء الله ، ولكن أعظم منه أن الله سبحانه ينسب نفسه إلى ولايتهم فيقول : "وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ" [الجاثية : ١٩] ، كما أنه في الآية الأخيرة من سورة النحل يجعل نفسه رفيقاً للمتقين وصاحبهم ، "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" [الآية : ١٢٨] ، ولا شك أنه لا عزة أعظم من أن يعلن الله بولائه لعبد من العباد ويقول : أنا وليه وصاحبه وأنا معه .

التقوى هي أصل الحسنات وروح الأعمال :

يعتبر القرآن التقوى أساس كل حسنة وروح الأعمال كلها ، يتحدث عن ذلك فيقول : "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى" [البقرة : ١٨٩] ، وقال في سورة الحج بعد توجيه الأمر بذبح البدن : "لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ" [الآية : ٣٧] ، وجاء في مناسبة أخرى أن الله إنما يقبل العمل إذا كان صاحبه ذا تقى ، وكان قد باشر ذلك العمل بالتقوى ابتغاء وجه الله وتقديم الزاد للآخرة ، يقول : "إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" [المائدة : ٢٧] .

إن القرآن يعلم الناس التقوى ويوجه إليهم دعوتها بأسلوبي الترغيب والترهيب كليهما ، فقد يحث عليها في كثير من آياته بالتبشير بالرحمة والمغفرة والجنة ورضا الله ، وقد يبعث على التقوى بذكر أهوال القيامة ومناظر الآخرة ، ولنقرأ أولاً عدة آيات الترهيب ، يقول في سورة

الحج : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ" [الآية : ١-٢] :

وفي آخر سورة لقمان يقول : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ" [الآية : ٣٣] ، كلتا هاتين الآيتين تتحدثان عن شدائد القيامة وأهوال الآخرة وتحثان على أخذ التقوى والتمسك بها في الدنيا .

كما أن آيات أخرى كثيرة تثير التقوى في القلوب بذكر قهر الله وعذابه ، فقد جاء في سورة البقرة : "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" [الآية : ١٩٦] ، وفي نفس السورة بعد آية "وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" [المائدة : ٤] ، وبعد عدة آيات "وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" [المائدة : ٧] ، وبعدها "وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" [المائدة : ٨] ، وقد يختار القرآن أسلوباً آخر في الموضوع فيوجه إنذاراً إلى الناس بحضورهم إلى الله وحشرهم إليه ، يقول في سورة البقرة : "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" [الآية : ٢٠٣] ، وفي نفس السورة "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ" [الآية : ٢٢٣] .

هذه آيات الترهيب التي تملأ النفس برهبة الله وخوفه وتدعو إلى التقوى ، ولنقرأ الآيات التي تحث عليها في أسلوب يرغب النفس إلى الرحمة والمغفرة والجنة ورضا الله ، فقد جاء في سورة النساء "وَإِنْ تُصْلِحُوا

وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا" [الآية : ١٢٩] ، وفي سورة الحجرات "وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ" [الآية : ١٢] ، وفيها "وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" [الآية : ١٠] ، كما وعد الله عباده المتقين بحبه عدا الرحمة والمغفرة يقول : "بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" [آل عمران : ٧٦] ، ويقول : "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" [التوبة : ٤و٧] .

إن هذا الحب والرحمة وما وعد الله به عباده المتقين إنما يظهر تأثيره الحقيقي في الآخرة التي هي دار الجزاء ، ولكن القرآن يشير إلى أن بعض مظاهره وتأثيره قد يظهر في الدنيا أيضاً ، كما يقول في سورة آل عمران : "إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ" [الآية : ١٢٠] ، كأن الله سبحانه يعد ويبشر المتقين بحماية ظهرهم ونصرهم ضد أعدائهم ، ويحفظهم من كيد الأشرار وأضرارهم ، ثم إن القرآن يبشر المتقين بالطمأنينة عند الموت وتحية ملائكة الموت إياهم وتبشيرهم بالجنة ، يقول في سورة النحل بعد توجيه بشارة الجنة ونعيمها إلى أهل التقوى : "كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" [الآية : ٣١- ٣٢] .

ويقول القرآن : إن ملائكة الجنة يستقبلون المتقين عند دخولهم في الجنة بغاية من الإجلال والإكرام ، يحيونهم ويهنئونهم ويبشرونهم بنعم من الله ، اقرأوا هذه الآية : "وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ" [الزمر : ٧٣] ، فيتلقى هؤلاء المتقون تحيات الملائكة

وتهانيهم وهم يدخلون الجنة التي لم تعد إلا لهم (أعدت للمتقين) وتنطلق ألسنتهم بنغمة الحمد والشكر لربهم "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ" [الزمر : ٧٤].

أما ما يجدونه في الجنة من نعيم ولذة فلا يعلمه إلا الله ، غير أنه يمكن أن نقدر بعض ما يكرمون به من لذة ونعمة في ضوء الآيات السالفة ، وفيه كفاية لإثارة عواطف الحنين إلى الجنة والشوق إلى نعيمها في المؤمنين ، فلنتنفس في جو لطيف من الإيمان والحنان بقراءة هذه الآية "وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ" [ص : ٤٩-٥٤].

إن القرآن بعد ما أعلن ثواب المتقين وجزاءهم في الدنيا والآخرة نادى كذلك أن مقياس الصغر والكبر ، والرفعة والضعة إنما هو التقوى ، فمن كانت تقواه أقوى وأخلص كان أكرم وأعظم في عين الله ، ومن كانت تقواه أضعف وأقل كانت قيمته كذلك أقلّ عند الله ، يقول "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" [الحجرات : ١٣] ، وذلك لأن التقوى هي التي تمنع صاحبها عن المعاصي والمنكرات ، والامتناع عنها ، معناه أن يقبل العبد على إحراز الحسنات وإنجاز الأعمال الصالحة التي تجلب رضا الله .

(اللهم آت نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها) .

التقوى وخصائص المتقين

لقد أسلفنا أن التقوى في الحقيقة خاصة بالقلب ، ولكن الحياة النزيهة التي يعيشها أهل التقوى قد يقال لها التقوى كذلك ، ولقد أوضح القرآن في مواضع عديدة ما يترتب بها على حياة الإنسان العملية من آثار ونتائج ، وما هي علامات أهل التقوى وخصائصهم التي يتصفون بها ؟ فلنقرأ بعض الآيات في هذا الموضوع ، جاء في مفتتح سورة البقرة : "هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" [الآية : ٢- ٣].

أشارت الآية إلى علامات ثلاث بارزة لأهل التقوى ، وهي أولا : الإيمان بالحقائق الغيبية التي جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا يستطيع المرء أن يطلع عليها بنفسه ، مثلا ذات الله وصفاته ، والقيامة ، والآخرة ، والجنة وجهنم ، وما إلى ذلك ، وثانيا : إقامة الصلاة ، وثالثا : الإنفاق من مال الله الذي رزقهم في سبيله حسب تعاليمه التي أنزلها ، فالذي لا يوجد فيه أي صفة من هذه الصفات لا شك أن قلبه فارغ عن معاني التقوى ، وجاء في نفس هذه السورة بمناسبة أخرى : "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" [الآية : ١٧٧].

تؤكد هذه الآية أن أهل الصدق والتقوى إنما هم الذين يحملون علامات التقوى وآياتها من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وإنفاق المال على حبهم له على الأقرباء واليتامى والمساكين وأبناء السبل والسائلين وفي فك الرقاب ، كما أنهم لا يألون جهداً في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، يصدقون في القول والوعد ، ويصبرون على الشدائد والضراء ويثبتون على الحق ، ويتحدث عنهم القرآن في سورة آل عمران فيقول : "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ" [الآية : ١٣٣- ١٣٥].

تحدثت الآية عن خصائص أهل التقوى وعلاماتهم بأنهم لا يغفلون عن ذكر الله للمحة واحدة وينفقون في سبيله أموالهم التي اكتسبوها ، ويكظمون الغيظ في أمور تخص بهم ويعفون عن مسيئيهم ، وهم على ذلك ، فإذا صدرت منهم خطيئة أو فاحشة أو ظلم أو معصية سرعان ما يتمثل أمامهم عذاب الله فيستغفرون الله منها ، ويبذلون أقصى جهودهم ، لكي لا يعودوا إلى ما صدر منهم ، فلا شك أنهم يتصفون بالتقوى ، وإلى ذلك أشار في سورة الأعراف بقوله : "إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ" [الآية : ٢٠١].

أما في سورة الحج فقد أخبر الله سبحانه بتأثير خاص للتقوى ، وهو أن القلب إذا عمر بالتقوى تعظمت شعائر الله ، فأكد أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب : "وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ"

[الآية : ٣٢] ، ولذلك فقد قيل عن المتأدبين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ" [الحجرات : ٣] ، ومعنى ذلك أن أدب الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيم شعائر الله نتيجة حتمية للتقوى وتأثيرها ، فالذين يسيئون الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم ويتجرؤون على الله تشقى قلوبهم وتفرغ عن كل ذرة من تقوى الله تعالى .

وهذه آية أخرى أتلوها عليكم في الأخير ، فقد قال الله تعالى يبشر المتقين بالجنة ونعيمها : "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" [الذاريات : ١٥- ١٩] .

إن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن من علامات التقوى قلة نوم المرء في الليل والاشتغال بذكر الله وعبادته والدعاء والاستغفار في معظم أجزاء الليل ، من غير أن يكتفي بذلك ويطمئن ، بل لا يزال يعيش في خوف وقلق من ذنوبه وأخطائه ، ولا ينفك يستغفر الله ويتضرع إليه ، حتى يشرك السائلين المحرومين ، والبوساء المساكين الذين أقعدهم المرض والزمان في أمواله التي يكتسبها في نهاره .

كل هذه الآيات تمثل لنا حياة التقوى أصدق تمثيل ، نوَّر الله قلوبنا بنور التقوى وجعلنا من عباده المتقين ، ورزق التقوى جيلنا المعاصر والقادمين بعدهم ، وجعلنا للمتقين إماماً .

الإحسان إلى العباد وحسن القيام بحقوقهم

يدعو القرآن بتأكيد بالغ إلى القيام بحقوق العباد وخدمتهم على قدر منازلهم وحسن السيرة معهم ، مثل ما يدعو بكل قوة إلى حسن الاعتقاد بالله والطاعة له وعبادته ، وقد يقرن في كثير من مواضعه بين الدعوتين ويذكرهما في سياق واحد ، بأسلوب يشير إلى أن مطالبة حقوق العباد وحسن المعاملة معهم كمطالبة عبادة الله وتوحيده من الأمور الأساسية الأولية في القرآن ، فمثلاً في سورة النساء : "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" [الآية : ٣٦] .

فهذه الآية تأمر بالمعاملة الحسنة والإحسان إلى الوالدين وذي القربى والجيران والأصحاب واليتامى والمساكين ، وأبناء السبل والغرباء (الأجانب) والمماليك ، مثلما تأمر بعبادة الله وتوحيده والإحسان إلى الوالدين وإن كانا من غير المسلمين

وكذلك في سورة بني إسرائيل : "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا" [الآية : ٢٣- ٢٤] .

وفى نفس السياق يقول بعد آية : "وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا" [الإسراء : ٢٦] ، وجاء في سورة الروم :

"فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [الآية : ٣٨].

تضمنت الآيات المذكورة أعلاه الطبقة المستحقة للعطف والعون ، كاليتامى والمساكين والمماليك والغرباء ، وفيها حث على أداء حقوقهم وخدمتهم ، كما أن بعض الآيات تحث على إغاثة الأسرى والقيام بخدمتهم ، فقد جاء في سورة الدهر في سياق الكلام عن المتقين وصفاتهم وأعمالهم التي يجزون بها الجنة "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا" [الآية : ٨].

وبهذه المناسبة يأمر القرآن بالعطف والرفق مع اليتيم والرأفة واللين مع السائل يقول : "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ" [الضحى : ٩- ١٠].

ومما يجب التنبيه عليه هو أن القرآن في مطالبته بحسن المعاملة والخدمة والعطف والتعاون ، التي شملتها هذه الآيات لا يخص طائفة دون طائفة ، ولا مسلما دون مسلم ، فإذا كان والدا مسلم أو أحد من أقربائه من غير المسلمين ، أو من يتيم أو مسكين أو سائل ممن ليسوا مسلمين فلا يمنع القرآن عن مساعدتهم وإغاثتهم ، بل يأمر بحسن المعاملة والتظاهر بالسلوك الحسن معهم كذلك بقدر المستطاع ، وخاصة الوالدين فإنهما أحق من جميع الناس بالخدمة والتعاون حتى ولو كانا مشركين يجاهدان ولدهما على أن يشرك بالله ويكفر به فلا يعطيهما الولد المسلم غير أنه يحسن إليهما المعاملة ويصاحبهما في الدنيا معروفاً وبراً ، يقول الله تعالى في سورة لقمان : "وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا" [الآية : ١٥].

مع الأهل والأولاد :

إن أوثق علاقة المرء بعد والديه مع أهله وأولاده ، والفطرة العامة تحث الإنسان إلى تهئية الراحة وإعداد أسباب الرخاء لأهله وذويه ، حتى إن كثيراً من الناس يتجاوزون في ذلك الحد المعروف ، ولذلك فإن القرآن لم يؤكد حسن المعاملة مع الأهل والأولاد وأداء حقوقهم ، ولكن الناس بوجه عام يهملون في تناولهم الأهل والأولاد بالتربية الدينية ، فاستلفت القرآن أنظار الأولياء بصفة خاصة إلى تأدية هذا الحق من التربية السليمة نحو أهليهم وأولادهم وإرشادهم إلى طرق تجلب لهم رضا الله وتقيهم عذابه ، كما أن المؤمن يقي نفسه منه ، فقد جاء في سورة التحريم : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" [الآية : ٦] .

وبما أن كثيراً من الناس يقصرون نحو أزواجهم أمرهم الله تعالى بوجه خاص بالمعروف والمعاشرة معهن بأداء حقوقهن ، فقال في سورة البقرة : "وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ" [الآية : ٢٢٨] ، وفي سورة النساء : "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" [الآية : ١٩] ، أما إذا كان أهل امرئ وأولاده ممن يؤذونه ويشكلون عليه خطراً من فساد الطبيعة أو الدين ، فيأمره القرآن بالحذر من شرهم ووقاية نفسه من أذاهم ، وبأن يحاول الصفح عنهم والعفو عن أخطائهم ، وما دام للصفح مجال لا يشدد عليهم ولا ينتقم منهم ، فإن ذلك سيبعثهم على صلاحهم وتقواهم كما جاء في سورة التغابن : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" [الآية : ١٤] .

حقوق العامة والإحسان إليهم :

لقد قرأنا تعاليم القرآن حول حقوق العباد والإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين والأسرى ، فلنقرأ الآن ما يقوله القرآن عن حقوق العامة من الناس والمعروف إليهم ، ولا شك فإن القرآن الكريم عندما أوضح في آيات متعددة أن البشر كلهم أولاد ذكر وأنثى ، وهما آدم وحواء عليهما السلام ، جعل النوع البشري كله موضع احترام وإعظام بالنسبة إلى أصله وطبيعته كما أنه أشار إلى الشرف الذي أكرم به الإنسان بإزاء الخلق كله لما يتمتع به من مواهب علمية وعملية خاصة به ، ومؤهلات إنسانية عظيمة يستخدم بها الكون كله ويستفيد منه ، وقد أشاد بهذه التكرمة الإنسانية بقوله : "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" [الإسراء : ٧٠] ، كما أن القرآن عدا هذه الكرامة الطبيعية والشرف التكويني أمر أتباعه بحسن القول للناس وقال : "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا" [البرة : ٨٣] ، وأمر بالعدل والإحسان ، مطلقا مع الناس كلهم وقال : "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ" [النحل : ٩٠] ، وقال في سورة البقرة : "وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" [الآية : ١٩٥] ، حتى إنه يأمر بإحسان المعاملة وجزاء السيئة بالحسنة ما استطاع ذلك مع العدو الذي يسيئ ويؤذي ، فيقول : "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" [فصلت : ٣٤] ، وفي سورة المؤمنون "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ" [الآية : ٩٦].

ويتحدث القرآن في موضع عن الذين يجزون السيئة بالحسنة ويحسنون إلى من يسيئ إليهم ويبشرهم بضعف الجائزة وزيادة الأجر ، يقول في سورة القصص : "أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ" [الآية : ٥٤] ، ونستطيع أن ندرك مدى روح التسامح والإحسان فيما يقدمه القرآن من توجيهات حولهما ، فقد طلب الصفح والعفو من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذين كانوا يخدعونه بمعاملتهم المنافقة وعهودهم الخائنة ، وقال : "وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" [المائدة : ١٣] .

وميثاق للقرآن عام يتجه إلى كل مسلم ، وهو القيام بالعدل التام مع أكبر عدو ، بحيث أن لا تحول العداوة في أداء حق العدل والنصفة ، أو تسبب تقصيراً ما ، انظروا كيف يوجه الخطاب بالقوة والتأكيد ، "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" [المائدة : ٨] .

وبالجملة فإن القرآن لم يأل في تأكيد العدل والإحسان حتى مع الأعداء ، والمناوئين وعامة البشر ، كما أنه يوجه أتباعه إلى التمسك بمعاملة البر والمعروف مع الوالدين وأهل القربى والضعفاء والمساكين وأصحاب الحاجة .

الحقوق الخاصة بالأخوة الاسلامية :

يعتبر القرآن آصرة الدين والإيمان كآصرة الدم والنسب في الحرمة والأهمية ، بل أقوى منها وأوثق ، وبالنسبة إلى قرابة الدين ، فكل مسلم أخو المسلم ، يقول : "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" [الحجرات : ١٠] ، ولهذه القرابة الدينية حقوق خاصة أوجبها فيما بين المسلمين ، كالتراحم ، والتعاطف ، والتواضع والتسامح ، والتناصح ، والتحابب ، ويتمتع كل منهم بدافع الخدمة لغيره ، فقد تحدث في موضع عن شأن المؤمنين بكلمة الرحمة ،

ووصفهم "رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ" [الفتح : ٢٩] ، وفي آية أخرى بقوله "أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" [المائدة : ٥٤].

وشدد النهي عن الأمور التي تبعث على التباغض ، وتملأ القلوب إحناً وحقداً ، وذلك كالسخرية ، والاستهزاء ، والنبز ، واللمز والغيبة والتجسس ، والظنة من غير موجب ، وما إلى ذلك مما لا يحتاط الناس في الابتعاد عنها والتجنب منها ، وهي أمور تملأ النفوس غيظاً ومقتاً ، وتسبب التقاطع والتدابر ، فأمر القرآن بكل صراحة وتأكيد بالامتناع عنها ، وأخذ الحيطة البالغة فيها ، يقول في تفصيل وصراحة :

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمان وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ" [الحجرات : ١١- ١٢].

والقرآن يتناول المسلمين بالتربية الإسلامية فيوجههم بمناسبة أداء الحقوق إلى أن لا ينسوا في دعواتهم الصالحة إخوانهم المسلمين ، ففي استعمال صيغ الجمع في أكثر الدعوات التي جاءت في القرآن إشارة واضحة إلى ذلك ، ولنقرأ هنا على سبيل المثال أدعية عديدة من دعواته الكثيرة : "رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [البقرة : ٢٠١].

"رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ" [آل عمران : ٨- ٩].

"رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [آل عمران : ١٦].

"رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ" [المؤمنون : ١٠٩].

"رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" [الحشر : ١٠].

"رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ" [آل عمران : ١٩٣- ١٩٤].

الباب الثالث

دعوة القرآن إلى فضائل الأخلاق ونهيه عن رذائلها

دعوة القرآن إلى فضائل الأخلاق

من أخص مواضيع القرآن الدعوة إلى فضائل الأخلاق ، ولقد أصبح من المقررات العلمية أن تعاليم القرآن حول الأخلاق الفاضلة تبلغ إلى أقصى حد من الكمال والجامعية ، والاتزان ، واتفاقها مع الفطرة البشرية بحيث إذا عمل بها الإنسان ، وتقيد في ناحيته الخلقية بهذه التعاليم صار نموذجاً للأخلاق الفاضلة ومثالا لها ، ولو أن الأنموذج الكامل للأخلاق الفاضلة إنما كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، كما تتحدث عن ذلك عائشة رضى الله عنها : "كان خلقه القرآن" إن باب الأخلاق في القرآن ليسع سفراً ضخماً ولا يمكن استيعابه واستقصاء دقائقه في هذا المقال الوجيز ، ولذلك نكتفي بذكر عناوينه البارزة وشرحها بإيجاز .

الصبر : يحتل خلق الصبر بين الأخلاق الأخرى محلاً ممتازاً ويشغل مكاناً كبيراً في القرآن بعناوين وأساليب مختلفة ، في الأهمية والأفضلية ، غير أن بعض اللغات حددت معنى الصبر وجعلت مختلفاً بها ، يعنون بالصبر تحمل المصائب والكوارث مثل الموت ، والمرض ، والفقر ، وسوء الحال ، من غير إبداء جزع أو إظهار فزع ، أو شكوى ، وأن الظالم إذا ظلم ويُصبر عليه ولا يُنتقم ولا يشتكى منه ، غير أن القرآن يعني بالصبر معاني واسعة وعميقة .

ويمكن بيان حقيقة الصبر في تعبير أوجز : بتحمل المكاره والكوارث والمصائب والثبات على الحق والعدل وعلى الطريق المستقيم لتحقيق غرض عظيم ، مثل جلب رضا الله ونشر الفضيلة ومحو الرذيلة في الدنيا

أو حرصاً على مثوبة الله في الآخرة ، أو رغبة في خدمة غيره وتوجيه الراحة والهدوء إليه ، ولنقرأ الآيات التالية في ضوء حقيقة الصبر هذه ، فقد جاء في سورة البقرة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" [الآية : ١٥٣].

ومعنى الاستعانة بالصبر يتضح بآيات من سورة الأعراف تتحدث عن قتل فرعون أبناء بني إسرائيل واستحيائه نسائهم ، وهناك لقن موسى قومه بني إسرائيل بالصبر قائلاً : "اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ" [الأعراف : ١٢٨] ، والتي جاءت في سورة آل عمران تعتبر كأنها آخر آية للهداية التي احتوت عليها السورة ، يقول "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الآية : ٢٠٠].

ومن ضعف الطبائع في الإنسان أنه إذا طالت عليه الشدائد والخسائر في سبيل الحق والبر من غير أن يرى ثمرة لتضحياته ، يستولي عليه اليأس ، ويفتُّ عضد همته ، ففي مثل هذه المناسبات يقول القرآن : "وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" [هود : ١١٥] ، وقد أعلن القرآن هذا القانون الرباني في سورة يوسف على لسان سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بالآية الآتية : "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" [الآية : ٩٠] ، أما في سورة النحل فأوضح مع الأمر بالصبر أن الصبر نعمة عظيمة لا تتيسر إلا لمن وفقه الله إليها ، يقول "وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ" [النحل : ١٢٧].

أما كيف يمكن للعباد أن يحصلوا على نعمة التوفيق من الله تعالى ؟ والقرآن يرد على هذا السؤال بأن يستخدم العباد قوة صبرهم وعزمهم التي أودعها في فطرهم في جهة ، يعني يعزمون الثبات على الشدائد والمصائب ابتغاء وجه الله ، وفي جهة أخرى يدعون الله تعالى بالتوفيق للثبات والاستقامة ، وقد تحدث القرآن في سورة البقرة عن قصة جماعة من المجاهدين واجهت عدواً جباراً مع جيشه الكثيف ، فلما رأى بعض ضعاف القلوب والإيمان ما رأوا من جنود العدو وضخامة عددها انهزموا وتثبطوا وقالوا : "لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ" [البقرة : ٢٤٩] ، ولكن الذين كانت قلوبهم عامرة بالإيمان ، قالوا : إن النصر والهزيمة لا يتوقفان على القلة والكثرة ، بل كم من أمثلة مرت في التاريخ انتصرت فيها القلة على الكثرة : "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" [البقرة : ٢٤٩].

تحدث لنا القرآن عن هولآء المؤمنين الذين ربطوا على قلوبهم ، وطلبوا من الله النصر والثبات والصبر ، وقالوا : "رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" [البقرة : ٢٥٠] ، ثم تناول القرآن ذكر مصير هذه المعركة وعاقبتها فقال : "فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ" [البقرة : ٢٥١].

ويكفي هذا البيان لمعرفة أن الطريق إلى توفيق الصبر أن يستعمل المرء عزمه وهمته ، ويدعو الله تعالى بكل إخلاص وتضرع لتوفيق الصبر ورحمته ، فالذي يعمل بهذه السنة الإلهية يهبه الله نعمة الصبر ويكرمه بالعز والقوة .

عاقبة الصابرين ومكانتهم : ولو أن الآيات التي تلوناها آنفاً تشير إلى مثوبة الصبر وعاقبته مع الأمر بالصبر وتلقينه إلى المؤمن ، ولكن نقرأ عدة آيات أخرى تتفرد بذكر ثواب الصبر وعاقبته ، ففي سورة الرعد حيث جاء ذكر أخلاق العباد الذين خصهم الله بإنعامه عليهم جاء في سياق البيان ذكر صفة خاصة بهم وهي الصبر فقال "وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ" [الآية : ٢٢] ، وأشار إلى عاقبة أمرهم في الآخرة فقال "وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" [الرعد : ٢٣- ٢٤] .

وكذلك في سورة آل عمران حيثما ذكر أهل الجنة وصفاتهم وأخلاقهم كان الصبر من أولى صفاتهم وخلالهم ، الذي أشار إليه بقوله : "الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ" [آل عمران : ١٧] ، وفي سورة الأحزاب أيضا حيث بشر المسلمين والمسلمات بالمغفرة والرحمة بناء على صفات الإيمان وأخلاقه التي يتصفون بها ، ذكر الذين يتصفون بالصبر بوجه خاص فقال : "وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ" [الآية : ٣٥] ، وقال بعد عدٍّ صفات خلقية لهم : "أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الأحزاب : ٣٥] ، ومن هذه الآيات العديدة يفهم ما للصبر من مكانة عظيمة وأهمية كبيرة في تعاليم القرآن وتوجيهاته ، وكم للصابرين من ضمان وكفالة بحسن العاقبة وضخامة المثوبة في الدنيا والآخرة .

الصدق : ومن بين ما يوليه القرآن أهمية رائدة من أخلاق وفضائل، الصدق والأمانة ، ولكن القرآن يشير إشارة واضحة إلى أن المراد من الصدق ليس أن يصدق الإنسان ويمتنع عن الكذب وقول الباطل باللسان، بل إن نطاق الصدق واسع جداً ، إنه يشمل صدق القلب والعمل

والجوارح ، ومعنى صدق القلب أن يتنزه عن كل نوع من أنواع النفاق والغدر والخداع ، كما أن صدق العمل يعنى أن لا يعارض عمل الإنسان قوله وعقيدته ، بل يتساوى الظاهر والباطن من غير فرق بينها .

فالذين يتصفون بهذه الصفات إنما هم صادقون في مصطلح القرآن ، فإذا كانوا قد بلغوا إلى حد الكمال في هذه الصفة فهم "صديقون" ، والقرآن يحث أتباعه على الاتصاف بهذه الصفة ، واصطحاب الذين يحملون هذه الصفة لكي يصطبغوا بصبغتهم ، فقد قال في سورة التوبة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" [الآية : ١١٩] .

وفي سورة البقرة آيات عديدة تلقي ضوءً لامعاً على ما تحمله كلمة الصدق من معنى واسع ، فالآية التي تتحدث عن عباد الله الصاقين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر والحقائق الإيمانية الأخرى ، وينفقون أموالهم التي كسبوها على الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل ، ويعرفون بعهد الله إذا عاهدوا ويصبرون على ما يصيبهم في سبيل الله من مصائب ، تنتهي بالاعتراف بصدقهم وإعلان تقواهم "أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" [الآية : ١٧٧] . وكذلك جاء في سورة الحجرات "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" [الآية : ١٥] ، ولذلك يشمل الصدق صدق القلب والعمل ، وقد جاء في إحدى آيات سورة الأحزاب كلمة "المنافقين" بإزاء "الصادقين" يقول : "لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ" [الآية : ٢٤] .

ويتضح لنا بعد ما علمنا معنى الصدق وسعة مفهومه أن الذين يكرمون بهذه الصفة في أصدق معناها مع كمال الإيمان بالله ورسوله إنما

هم الصديقون ، وليس لأحد شيئ مما لهم من العزة والمكانة الرفيعة بعد الأنبياء ، ولذلك فإن القرآن حيث ذكر تلك الطبقات الأربع للمؤمنين الذين يحظون بالتقرب إلى الله والقبول عنده والحب منه ، وينعم الله عليهم بوجه خاص كان فيه ذكر "الصديقين" في الدرجة الثانية وبعد الأنبياء يقول : "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" [النساء : ٦٩].

ويمكن تقدير مكانة الصدق والصديقين الرفيعة بأن هذه الصفة نسبت إلى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث ذكره القرآن في سورة مريم فقال : "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا" [الآية : ٤١] ، وكذلك في الآيات الآتية بعدها قيل عن سيدنا إدريس عليه الصلاة والسلام : "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا" [مريم : ٥٦] ، ولما أراد القرآن أن يمدح مريم عليها السلام وصفها بالصديقة وقال : "وأمه صديقة".

ولقد ذكرنا القرآن أن صاحب يوسف عليه الصلاة والسلام في السجن إنما وصفه بالصديق حينما أعجب به ، وناداه قائلا : "يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ" [يوسف : ٤٦] ، وأعظم من جميع ما ذكرنا أن الله سبحانه أشار إلى أن الصدق من صفات الله تعالى أيضاً فقيل : "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا" [النساء : ١٢٢] ، "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا" [النساء : ٨٧].

وبهذا يتبين مدى أهمية الصدق وقيمته ، ويفهم ما لهذه الصفة من مكانة رفيعة عند الله تعالى ، وما لها من مثوبة كبيرة وأجر عظيم لمن يتصف بها ، ولنقرأ بعض الآيات الأخرى في الموضوع ، وقد مرت بنا

آية من سورة آل عمران تضمنت ذكر صفتي الصبر والصدق ، "الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ" [آل عمران : ١٧] ، وفي سورة الأحزاب حيث بشر الله سبحانه المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والأجر العظيم على صفاتهم التي يتصفون بها ذكر صفة صدقهم فور الانتهاء من بيان صفات الإيمان والسلام والطاعة ، يقول : "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ" [الأحزاب : ٣٥] وبعد ذكر صفات عديدة لهم وجهت إليهم بشرى المغفرة والأجر العظيم "أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الأحزاب : ٣٥] .

وجاء في الآيات الأخيرة من سورة المائدة ذكر يوم القيامة ، فلم يلبث أن بشر الصادقين بالخلاص من هول هذا اليوم : ودخولهم في رحمة الله ، يقول :

"هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [المائدة : ١١٩] ، ولا ريب أن القرآن بتوجيه هذه البشارات السارة بالجنة والمغفرة والمثوبة والرضا إلى أهل الصدق والصادقين إنما حث الناس على اتخاذ الصدق شعاراً لهم .

الإيفاء بالعهد : إن الإيفاء بالعهد هو نوع من أنواع الصدق يمثل جانباً خاصاً منه ، حتى إن القرآن استعمل في بعض المناسبات كلمة الصدق لهذا المعنى ، كما جاء في سورة الأحزاب : "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ" [الآية : ٢٣] ، فقد عبر عن الإيفاء بالعهد عن كلمة الصدق ، ذلك لأنه نوع خاص من الصدق ، وبما أن القرآن طالب بالإيفاء بالعهد وبالإيفاء العقد رأينا من المناسب أن نذكر بيان القرآن

حول هذا الموضوع تحت عنوان مستقل ، ففي الآية الأولى من سورة المائدة التي تفتتح بها ، جاء قول الله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ" [المائدة : ١] ، وفي سورة بني إسرائيل "وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا" [الآية : ٣٤].

ويحث القرآن على الإيفاء بالعهد عدا هذه الدعوة الصريح إليه والمطالبة به ، عن طريق البشارة التي يوجهها إلى الموفين بالعهد ، بالجنة والفوز برضا الله وخير الآخرة ، ففي الآيات من سورة البقرة التي تلوناها آنفاً في بيان صفة الصدق جاءت ضمن صفات المتقين الصالحين من عباد الله صفة الإيفاء بالعهد أيضا ، إذ قال : "وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا" [البقرة : ١٧٧] ، وكذلك في "سورة المؤمنون" حيث ذكرت صفات المفلحين من المؤمنين جاء ذكر صفة الرعاية بالعهد والأمانة "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ" [المؤمنون : ٨].

وقد تناول القرآن أسلوباً آخر لبيان أهمية الإيفاء ، وذلك بأن اعتبره صفة من صفات الله تعالى فقال : "وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ" [التوبة : ١١١] ، وقال في آية أخرى بأسلوب النفي : "وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ" [الروم : ٦] ، وفى آية ثالثة جاء بالتأكيد فقال : "وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ" [الحج : ٤٧] ، وفي أخرى "إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ" [آل عمران : ٩].

إن مفاد هذه الآيات كلها أنها تشير إلى أن الإيفاء بالعهد من صفات الله تعالى ، الذي يوفي بكل عهد ووعد منه ، ولا شك أنه أقوى أسلوب

من الكلام لحث العباد على اتخاذ هذه الصفات شعاراً لهم ، واتصافهم بإيفاء العهد والتجنب من إخلاف الوعد وإخفاره .

الأمانة : أما الأمانة فهي كذلك لون خاص بالصدق ونوع من أنواعه ، ويعبر بها في بعض المحاورات الكلامية عن وديعة تكون قد أودعت لدى شخص فلا يتناولها بالخيانة ، ويردها إلى صاحبها بكل أمانة كلما استردها منه ، ولا شك أن هذا العمل خلق قويم ، غير أن مفهوم الأمانة في القرآن واللغة العربية أوسع منه بكثير ، فيدخل فيه القيام بالواجبات وأداء الحقوق بالدقة والحيطة ، وملاحظة كل عمل ذي شأن ، وعلى هذا فينبغي أن نستوحي مفهوم الأمانة بقراءة آيات من القرآن تتحدث عنها ، يقول الله تعالى في سورة النساء : "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها" .

وبناء على هذه الآية يجب على كل مسلم أن يؤدي الأمانة المال والحقوق إلى أهلها بكل دقة من غير أن يقصر في أدائها أو يخونها في شيئ ، حتى إذا استشاره أحد أو اطلع هو على سر أحد يقوم في ذلك بالأمانة والنصح ، فهذا وما أشبه كله يتضمن مفهوم الأمانة التي أكد عليها القرآن .

كما أن القرآن يحث على الأمانة بأسلوب آخر ، وهو أنه يعد لرعاة الأمانة والقائمين بها بالفوز والجنة ، فقد جاء في مفتتح سورة "المؤمنون و"المعارج" في ذكر صفات أهل الجنة والفوز بالنعيم "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ" [الآية : ٣٢] .

وقد عظم القرآن أهمية هذه الصفة بأن جعلها صفة خاصة برسل الله وملائكته المقربين ، فقد جاء في سورة الشعراء حيث تحدث عن رسل الله المتعددين بأنهم قالوا للأمم التي بعثوا إليها : "إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" [الآية : ١٠٧- ١٠٨] ، وجاء في نفس السورة في آية أخرى : "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ" [الآية : ١٩٣].

فالدين يتمنون اللحوق بالأنبياء والملائكة المقربين ، ويحبون أن يكون لهم حظ من أخلاقهم وصفاتهم يجب عليهم أن يتبنوا خصيصة الأمانة فيقوموا بواجبهم بكل دقة ونصح ، ويودوا حقوقهم وتبعاتهم بكل أمانة وحرص .

العدل والنصفة : ومما أكد عليه القرآن في تعاليمه الخلقية والاجتماعية ، العدل والنصفة ، وهما كذلك نوع من أنواع الصدق ، ومعنى ذلك أن يعامل كل شخص مهما كان ، من غير مراعاة ولا مداهنة ما يستحقه في الواقع ، ولا شك أن نظام الكون إنما يستقيم ويقوم على العدل ، وكل أمة أو دولة لا تراعي هذه الخلة تحرم رحمة الله ، وتواجه أسوء عاقبة في الدنيا ، ولكن نقدر مدى أهمية هذه الخصيصة في تعاليم القرآن ودعوته يجب أن نقرأ هذه الآية في سورة الحديد ، يقول الله تعالى : "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ" [الآية : ٢٥].

والمراد بالميزان في هذه الآية أحكام العدل والنصفة وقوانينها ، فتفيد الآية معنى أن الله سبحانه حينما أنزل مع رسله كتباً مختلفة وصحائف متعددة أنزل معهم قوانين العدل وأحكامه كذلك ، حتى يتسنى لعباده الأخذ بسبل العبادة في ضوئها ، ويقوموا فيما بينهم بالإنصاف والعدالة ،

والواقع أن اقتران الميزان بالكتاب في الآية إشارة إلى ما للعدل عند الله من قيمة وماله من أهمية كبرى في تعاليم القرآن وشريعة الله .

وجاء كذلك في آية أخرى ذكر العدل مع ذكر الكتاب فقد قال تعالى في سورة الشورى : "قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ" [الآية : ١٥] ، ويكفي للمتأملين في كتاب الله ومعانيه أن يقدروا قيمة العدل في اقتران ذكره مع الإيمان بالكتاب ، ولعل ذلك هو السبب في بدء الأمر بالعدل حيث أُمر المؤمنون بالاتصاف بعديد من فضائل الأخلاق وأحكامها والانتهاء عن رذائلها ، وذلك في سورة النحل إذ يقول : "وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ" [الآية : ٩٠] ، وكذلك في سورة الأنعام حيث جمع بين أوامر الله ونواهيه يؤكد الأمر بالعدل بقوله : "وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى" [الآية : ١٥٢] .

أما في سورة النساء فقد تناول الموضوع بإيضاح وتفصيل أكثر ، وقال : إن من واجب المسلمين أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، متمسكين بالعدل ، ولو كان ذلك على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، بقول "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" [الآية : ١٣٥] .

وكم لهذه الآية من وضوح وجامعية واتفاق في الأمر بالعدل وتأكيده ، إنما تحدث بكل إعلان على اتخاذ العدل والصدق في الأمور كلها ، والتمسك بهذه الخصلة بكل أمانة وإخلاص ، مهما أصاب ضررها نفس العادل أو والديه ، أو أقرباءه ، غير أن المحاباة بإزاء الله والعدل والصدق لا

تجوز في أي حال ، لاخوفا من غني ولا رثاء على فقير ، فإن الإنصاف، والصدق أقدم على كل شيئ ، ولا يخفى على الله فقر الفقير وغنى الغني إنه هو المولى الحقيقي ، وهو الناصر المعين ، ولم يكف بذلك ، بل حرض على الصراحة في إيجاب العدل ، من غير إلواء أو إعراض ، حذراً من سخط الناس ، فإن ذلك مما يضاد العدل ويضر بروحه .

ولنقرأ في الأخير آية أخرى من سورة المائدة توجب العدل حتى مع العدو المناوئ من غير أن تحول شدة عداوته دون العدل والإنصاف يقول : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" [الآية : ٨] .

إن الآيات المذكورة أعلاه إنما تنهى عن المحاباة والمجانبة في العدل والنصفة ، مهما أضر لك بنفسه أو بأقربائه ووالديه ، أو أصاب غنياً أو فقيراً بضرر ظاهر ، فإن العدل من صفات الله وهو يأمر به عباده ويرتضي به لهم ، فلا بد من الاعتماد عليه في الأمور كلها ، كما أن الآية الأخيرة توضح لنا أن العدل وراء كل عداوة وفوق كل مناوءة وشنآن ، فلا يحولن شيئ من ذلك دون الإنصاف ، والعدل ، وإنما تجب مناصرة الحق حيثما كان سواء مع الصديق أو العدو .

هذه هي دعوة القرآن إلى العدل ، فلو أن المسلمين كانوا متمسكين به لم يفلت زمام الحكم من أيديهم ، بل وكانوا يملون إرادتهم على العالم كله ، واختارتهم الدنيا لقيادتها .

السماحة والسخاء : ومن فضائل الأخلاق التي حث عليها القرآن بتأكيد بالغ السماحة والسخاء أيضاً ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه

إذا كان قد أنعم على عبد من عباده بالمال والثراء والقوة في هذه الدنيا لا ينبغي له أن ينفرد هو بالانتفاع ، بل يشرك فيه غيره كذلك وينفعهم بما يستطيع ، إن نطاق ذلك واسع جداً يشمل كل نوع من العون والخدمة والمساعدة ، فمثلا إنفاق المال على الفقراء والقيام بخدمة أصحاب الحاجات وإيثارهم على النفس والمال ، ومساعدتهم بالوسائل والإمكانات التي يملكها ، كل ذلك لون من السخاء والسماحة ، وقد حث عليه القرآن باعتباره ذلك فضائل أساسية بعناوين مختلفة ، ففي أول سورة البقرة وهي بالأصح جزء تمهيدي للقرآن جاء من بين صفات المفلحين الأساسية التي تستفاد من الهداية القرآنية أنهم ينفقون مما يرزقون ، يقول : "وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" [الآية : ٣] .

قال المفسرون : إن الإنفاق لا يختص بالمال ، بل يعم كل ما رزقه الله عباده من المال والقوة والمواهب والسعي ، فينفق ذلك على نفع العباد ومصالحهم ، وجاء في نفس هذه السورة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ" [البقرة : ٢٥٤] ، وقال أيضاً في هذه السورة يحث على إنفاق المال والقوة في سبيل الله وفوائده ، ويذكر ما يلاقيه المنفقون مقابل ذلك من أجر ومثوبة : "وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ" [الآية : ٢٧٢] ، وقال بعد آيات "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [الآية : ٢٧٤] .

كما أشار القرآن في هذا الموضوع إلى أن الإنفاق في سبيل الله يضاعف الأجر أضعافاً مضاعفةً قد تبلغ إلى مأة ضعف وأكثر ، فكأن الإنفاق في سبيل الله تعالى أربح تجارة ، وزراعة ، تؤتي كل حبة منها مأت الحبات ، يقول : "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" [البقرة : ٢٦١].

وكذلك يعبر القرآن الإنفاق في سبيل الله عن إقراض الله ، وذلك في أسلو مؤثر رقيق ، يقول : "وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا" [المزمل : ٢٠] ، وقال في سورة البقرة بأسلوب أروع يخاطب النفس ويقع منها كل موقع : "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً" [الآية : ٢٤٥] ، وفي سورة الحديد "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ" [الآية : ١١] ، وفي سورة التغابن "إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ" [الآية : ١٧].

والحقيقة أن تعبير الإنفاق بالقرض الحسن ، ليس إلا مجرد عطف على العباد ورحمة لهم ، وإلا فمن الذي لا يدري أن الله غني عن العالمين ، ذلك الذي يربي الكون كله ، وهو غني عن كل تعامل يحتاج فيه إلى دين أو قرض .

ولا تكتفي القرآن بالحث على مطلق الإنفاق ، بل إنه يطلب ذلك فيما يحبه الإنسان ومن النوع الفاخر الذي يرغب في إبقائه له ، ويشق على نفسه أن ينفقه حتى على نفسه فضلاً عن غيره ، وذلك لكي لا يفضل الناس إنفاق المال الذي فقد قيمته ، وزالت أهميته ، وصار مما لا يرغب فيه النفس على المال الذي لا يزال له قيمة كبيرة ويعتبر من أنفس المتاع ،

فقد قال في أواخر سورة البقرة حيث يحرض على الإنفاق ويرغب فيه : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ" [الآية : ٢٦٧] ، وقال في سورة آل عمران : "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" [الآية : ٩٢] .

ولكن القرآن لم يقصر في التنبيه على أن الغاية الأصيلة من كل ذلك يجب أن يكون ابتغاء وجه الله ، وطلب مرضاته ، وقد مضت الإشارة إلى ذلك في الآية التي تلوناها آنفاً ، والتي جاء فيها "وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ" [البقرة : ٢٧٢] ، أي رضاه ، لا يريد بذلك غرضاً ولا يطلب منه غاية أخرى ، وجاء في سورة الليل أن المؤمن التقي الذي ينفق ماله على غيره عذاب جهنم ، يقول: "وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى" [الآية : ١٧- ٢١] .

وجاءت في هذا الموضوع آية مهمة في القرآن ، يجب أن لا نتناساها ، ونحن نقوم بالإنفاق والصدقات ، وهي تفيد معنى الامتناع عن المن لمن أنفق عليه أو أحسن إليه بالصدقة ، فإذا وجد المن سبيلا إلى نفس صاحب الفضل بطلت صدقته ، وسبب ذلك إيذاء للضعيف المسكين الذي قبلها : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى" [البقرة : ٢٦٤] .

الإيثار : من أعظم أنواع البر والسخاء ، ذلك أن يؤثر المرء حاجة أخيه على حاجته ، ويقدمه على نفسه ، يرضى لنفسه بالجوع والأذى ويوفر لغيره الراحة والشبع ، وقد تحدث القرآن عن الأنصار الذين كانوا

يحملون هذه الصفة فقال : "وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ" [الحشر : ٩] ، وفي آية أخرى يقول عن العباد الصالحين من أصحاب الجنة : "يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا" [الدهر : ٨] ، ولا شك أن ثناء الله على حاملي هذه الصفة من عباده ومدحهم إنما هو حث لغيرهم على اتخاذ هذه الصفة بأسلوب مؤثر ، ودعوة لهم إلى نيل رضا الله بالاتصاف بها .

البخل : أما البخل فهو سيئة بإزاء حسنة السخاء والسماحة ، وضد لها ، ولذلك فإن القرآن حينما دعا إلى السخاء والإيثار نهى عن البخل ، وتناوله بالذم الشديد ، ولنقرأ بهذه المناسبة بعض الآيات في هذا المعنى ، جاء في سورة آل عمران : "وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" [الآية : ١٨٠] ، وفي سورة التوبة بأسلوب أكثر إيضاحاً وتأثيراً : "وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ" [الآية : ٣٤- ٣٥] .

إن هذه الآية تشمل ذكر عاقبة البخل وادخار الأموال ، ونتائج الشح والإمساك الوخيمة ، بما لو أن القرآن لم يحتو على غيرها لكان فيها غنى وكفاية ، وهل يمكن الإنذار عن هذه اللعنة الروحية والخلقية بأكثر من هذا ، وفقنا الله إلى فهم هذه الحقائق وإدراك معانيها .

الاستغناء والقناعة : من الأخلاق الفاضلة التي يزدان بها الإنسان الاستغناء والقناعة ، وهما مثل السخاء والسماحة ، بل الحق أن

السخاء والاستغناء كليهما وجهان لصفة واحدة للنفس الإنسانية ، والمراد بالاستغناء والقناعة أن يقتنع المرء بما يصيبه من الله سبحانه عن طريق وسائل عمله وجهوده النزيهة من رزق ، ويعتبر ذلك حقه الكافي ونصيبه الوافر ، من غير أن يمد عينه إلى ما عند غيره أو يمد يد الحاجة إلى أحد من خلقه .

القرآن يعلّم كل إنسان أنه عبد الله ، وأن الله هو ربه الرحيم الكريم ، فلا ينبغي له أن يعرض حاجته على أحد غيره ، فإن خزائن رحمته واسعة لا نهاية لها ، وهي تكفيه في كل حال ، وقد أسلفنا آيات عديدة في هذا المعنى حيث تحدثنا عن التوحيد ، ولنقرأ هنا آية آخرى بهذه المناسبة ، تقول : "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ" [الزمر : ٣٦] ، كما ويأمر الله تعالى بطريق مباشر بالكف عن مد عين الطمع إلى ما متع به غيره من متاع الحياة الدنيا ، فيقول : "وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ" [طه : ١٣١] وفي آية أخرى "وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ" [النساء : ٣٢] .

يعني أن لا يطمع المرء فيما آتاه الله غيره ، ولم يعطه هو من عرض الدنيا ومتاعها ، ولا يرغب فيه أبداً ، بل ولا يمد عينه إليه ، ويرضى بما قسم له وقدر ، وذلك ما يسمى بالقناعة .

التوكل : إن أساس الاستغناء والقناعة هو التوكل ، فكل عبد من عباد الله يحظى بالثقة برحمة الله وربوبيته ويطمئن قلبه بأن الله كافيه عند كل حاجة ، وهو ربه الرحيم الكريم ووكيله ، فإن اتصافه بصفتي الاستغناء والقناعة في معنى الكلمة أمر طبيعي ، ثم إن التوكل في ذاته من أسمى صفات الإيمان ، ولذلك فإن من يتمتع بهذه الصفة يرى في كل

حال أن الله معه ، وأن خزائنه وجنوده في خدمته على الدوام ، ولأجل ذلك قد حث القرآن أتباعه على الاتصاف بالتوكل وأكده بوجه خاص ، يقول : "إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" [آل عمران : ١٦٠] ، وجاء في سورة التغابن : "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" [الآية : ١٣] ، وفي سورة الفرقان : "وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ" [الآية : ٥٨] ، وكذلك في سورة الطلاق "وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ" [الآية : ٣] .

التواضع : ومن الأخلاق التي أكد عليها القرآن بوصف خاص التواضع ، وهو ضد للتكبر ، ومعناه أن يعتبر المرء نفسه أقل من غيره ، ويغلب عليه طابع العجز والعبودية ، ويعامل الناس معاملة تتسم بالتواضع والصغر ، إن التواضع إنما يتجلى في كل شيئ ، في المشي ، والكلام ، والعمل ، حتى القيام والقعود ، ففي سورة الفرقان حيث ذكر الله تعالى عباد الرحمن وسلوكهم تحدث فيما بيّن من صفاتهم عن تواضعهم في المشي أيضاً فقال : "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا" [الفرقان : ٦٣] . وكذلك في سورة بني إسرائيل حيث تحدث عن إخلاص التوحيد وعن الأعمال والأخلاق بإيضاح وتفصيل ، ختم بيان ذلك بالمنع عن مشي التبختر والخيلاء : "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا" [الإسراء : ٣٧] .

وجاء في سورة لقمان على لسانه وصية قيمة بالتواضع ، وجهها إلى ابنه وهو يعظه ، فقال : "وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ

مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" [الآية : ١٨- ١٩].

ولا شك فإن هذه الآيات تتناول درساً كبيراً للتواضع ، فهل من مدكر؟ والحكمة في توجيه الخطاب عن التواضع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعالى يؤكد لعباده ما لهذه الصفة من أهمية في عينه مهما كان الإنسان عظيماً ، وبلغ إلى منزلة أسمى من العلم والمعرفة أو المال والمتاع ، يجب عليه في كل حال أن يتواضع مع عباد الله ويعاملهم معاملة المروءة والأخلاق ، من غير أن يتظاهر أمامهم بكبره ورفعته أو سمو مكانته .

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم حلّ أرفع منزلة للفضيلة والعظمة ومكارم الأخلاق ، ولكنه خوطب على كل ذلك بالآية التي تقول : "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ" [الحجر : ٨٨] ، وآية أخرى أيضا : "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" [الشعرا : ٢١٥] ، وفي الآيتان دلالة واضحة على أن التواضع والتصاغر حق طبيعي لأهل الإيمان ، أما أهل الشرك والكفر إذا لم يتظاهروا بعنادهم وعداوتهم فلا بأس في إظهار التسامح وكرم الخلق لهم ومعاملة الإحسان والرحمة معهم ، إذا دعت إليهما الظروف في ضوء ما يأمر به القرآن ، غير أنهم من جرَّاء كفرهم وشركهم لا يستحقون معاملة التواضع ، وإن التواضع لهم يضاد الغيرة الإيمانية ، ولذلك فإن القرآن يخص التواضع وخفض الجناح لأهل الإيمان وحدهم .

الاستكبار والخيلاء : لقد سبق الآن أن التواضع ضد الكبرياء ، فيقدر ما يحب الله التواضع من عباده ببغض التكبر والخيلاء منهم،

والقرآن يوضع هذا المعنى في مناسبات متعددة ، فقد جاء في سورة النحل : "لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ" [الآية : ٢٣] ، وفي سورة النساء : "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا" [الآية : ٣٦] ، وقال في آية أخرى عن الجنة مقر أولئك الصالحين الذين لا يريدون العلو في الأرض ولا يبغون فيها الفساد ، يقول : "تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا" [القصص : ٨٣] .

إن هذه الآيات تشير — والتجربة خير شاهد — إلى أن كل فساد يظهر في الدنيا إنما يصدر عن رغبة العلو والكبرياء ، فكان الاستكبار أصل كل فساد ، ونحس آخر لهذه الصفة الخبيثة أنها تحول دون قبول الحق والهداية ، ففي القرآن آيات كثيرة تؤكد أن الأمم التي رفضت دعوة أنبيائها وردت رسالاتهم إنما فعلت ذلك كبراً وعلواً ، على رغم أن بعض الأمم منها استيقنت بالدعوة التي وجهت إليها ، والآيات التي تمثلت أمامها بتأكيد أنها من عند الله ، وأنها حق لا مرية فيه ولكنها جحدت بها استكباراً وعلواً ، كما فعل فرعون وقومه مع سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فأخذهم عذاب الغرق والمهانة ، وإلى ذلك يشير القرآن بقوله "وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" [النحل : ١٤] .

وفي سورة الصافات حيثما ذكر أحوال طبقة نم أهل جهنم تحدث عن السبب الكبيرة لشقائهم فقال : "إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ" [الآية : ٣٥- ٣٦] ، وكذلك كان الاستكبار هو السبب الأكبر لكفر الشيطان

ورجمه ، وذلك لأن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم لم يتمثل أمره فخاطبه الله سبحانه سائلا عن سبب ذلك ، "مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ" [الأعراف : ١٢] ، فرد عليه قائلا : "أنا خير منه" وذلك هو الاستكبار الذي حمله على التمرد والثورة على أمر الله ، "أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ" [البقرة : ٣٤] ، ذلك هو التكبر الذي أذل الشيطان ، وأحاطه بالذل والخسران .

الحلم والصفح : يعني أن يحتمل الإنسان بصدر رحب ووجه باسم ما يصيبه من غيره من أذى أو خسارة ، ولا يتعرض له بشيئ من العقاب أو الانتقام على رغم قدرته عليهما ، بل يعفو ويصفح عنه بصرف النظر عما ارتكبه من أعمال شنيعة ، ولا شك أن هذه الخصلة لها مكانة كبيرة بين خصال الأخلاق الفاضلة الأخرى ، وقد حث عليها القرآن في مناسبات شتى ، فقد جاء في سورة آل عمران ضمن صفات أصحاب الجنة والمغفرة والرحمة : "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" [الآية : ١٣٤] ، وفي سورة الشورى بعد ما ذكر إباحة الانتقام من كل ظلم وعدوان حث على الحلم والعفو وقال : "وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" [الآية : ٤٣] .

وجاء في أواخر هذه السورة نفسها ذكر صفة تخص بأهل الإيمان المتمتعين بنعم الله في الآخرة ، وهي أنهم يتغلبون على غضبهم فقال : "وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ" [الشورى : ٣٧] ، وكذلك في سورة النور فقد حث فيها على الصفح عن المسيئين والمعتدين بأسلوب مؤثر جذاب وقال : "وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" [النور : ٢٢] .

يعني أن من يريد ويتمنى أن يعامله الله معاملة الرحمة والمغفرة فينبغي له أن يعفو ويصفح عمن أساء إليه ، فإن فعل ذلك تناوله الله بالعفو الذي يتجلى فيه شأن الرب الرحيم : ثم هنالك جانب آخر للحث على العفو والصفح ، وهو أن الله أشد عفواً وصفحاً عن عباده على ذنوبهم وأخطائهم ، فهو إنما يدعو عباده إلى ما يحبيه ويعمل به ، إنه يغفر لعباده المذنبين ويرحمهم ، فما أجدر بالعباد أن يعفوا عن من يسيئ إليهم ، حتى يقربوا إلى الله وينصبغوا بصفته ، فمن لا يتأثر بهذه الرسالة الرحيمة التي أنزلها الله تعالى لعباده في كتابه العظيم ؟ وقد جاء في سورة التغابن ما يقارب هذا المعنى في قوله : "وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" .

إلى هنا كان عاماً في الآيات التي أوردناها ، ولنقرأ الآن آية من أواخر سورة الأعراف توجه الخطاب بوصف خاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" [الآية : ١٩٩] .

كما تحدث في سورة القصص أهل الإيمان الذين يستحقون فضلاً من الله ونعمته "وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ" [الآية : ٥٥] ، وجاء كذلك في سورة الفرقان من بين صفات عباد الرحمن أنهم لا يلقون بالاً إلا ما يخاطبهم به الجاهلون : "وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" [الآية : ٦٣] .

أليس في هذه التعاليم القرآنية حل كثير من مشكلاتنا وعلاج لكثير من خلافاتنا ، ولو أن الناس تبنوها وطبقوها على حياتهم ومجتمعاتهم ساد العالم جو من السعادة والسلام والحب والوئام .

وهناك ما يستحق الاعتناء ، وهو أن تعاليم القرآن هذه حول العفو والصفح إنما لها علاقة بالحقوق والمعاملات الشخصية الخاصة ، وذلك مثلا إذا كان هناك من يؤذيني ويسيئ إلى شخصي ، وهو مذنب في حقي فالأحسن أن أعفو وأصفح عن إساءته ، لأن القرآن يحث على ذلك ، أما إذا كان هناك فرد أو جماعة يعيث في الأرض فساداً وضلالاً ، يتعدى حدود الله ويعكر جو الأمن والهدوء فهو مجرم لا يستحق الحلم والصفح ، لأن ذلك يفضي إلى غمط الحقوق وتعدي الحدود ، ولا بد لمثل المفسد من تنفيذ عقوبة عاجلة فيه ، دفعاً لشره وحداً على فساده .

وكل آية من آيات القرآن تأمر بأخذ المجرمين والمسيئين على اختلافهم بالشدة والعقوبة إنما يختص حكمها ذلك بمثل هذا النوع من الناس ، فلا بد من ملاحظة هذا الفرق .

الجراءة والبسالة : وكما أن القرآن يوجه أتباعه إلى التواضع والصفح ، والتخشع ، يطلب منهم كذلك أن يتظاهروا بالقوة والبسالة والتفاني والاستماتة ، ولا سيما إذا قامت معركة بين الحق والباطل فيأمرهم بالثبات والمقارمة كرجال من حديد ، يقول في سورة الأنفال "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا" [الأنفال : ٤٥] ، وفى آية أخرى "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ" [الصف : ٤] .

وفي مناسبة أخرى تناول الله سبحانه أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر قوتهم الإيمانية وشجاعتهم في أسلوب خاص من الحب والاستحسان ، وذلك عندما تخوفوا من إعدادات العدو وجيشه الكثيف ليقضي عليهم ، فلم يرعبوا بهذا النبأ المفزع ، وإنما ازدادوا به إيمانا ،

وتوكلا على الله ، يقول الله : "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" [آل عمران : ١٧١].

وكذلك في غزوة الأحزاب حينما رأوا جنود العدو آتية من كل جانب لم يفزعوا ولم يضعفوا ، بل ثبتوا واستقاموا وتظاهروا ببسالة نادرة ، يتحدث عنهم القرآن في غاية من الثناء عليهم ، ويقول "وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا" [الأحزاب : ٢٢].

وبالمناسبة يجب أن لا ننسى أن الشيئ الذي يحول دون الجزاءة والبسالة إنما هو خوف الموت وخطر الأذى والخسارة ، وهو الذي يملأ قلب الإنسان جبناً وخوراً ، ولكن القرآن قطع دابر هذا الجبن والخوف فقال في آيات كثيرة ما يفيد معنى أن الأجل له وقت معلوم ، وأن أجل الله إذاجاء لا يؤخر ، ولا يقدم ، كما قيل : إن الآلام والمصائب كلها من الله ، وهي تتوقف على تقديره ومشيئته ، فلا يضر أحد أحداً ما لم يرد الله ، وكذلك بالعكس ، يقول في سورة آل عمران : "وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً" [الآية : ١٤٥] ، وجاء في سورة التغابن "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ" [الآية : ١١] ، وفي سورة التوبة "قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" [الآية : ٥١].

وكل قلب يتحلى بهذه التعاليم الربانية ، ويؤمن بهذه التصريحات الإلهية لن يجد إليه الجبن والضعف سبيلاً ، وإنما هي البسالة والشجاعة الإيمانية التي تزينه وتحيط به من كل جانب .

الصرامة والثقة : ومن الصفات الخلقية التي لها نسب قريب بالشجاعة والجراءة ، هي ما نسميه بالصرامة والثقة ، إن القرآن يطلب من أتباعه أن يتصفوا بهما ، ويعيشوا بما لا يصغرهم في أعين الناس ، حتى ولو أصابتهم ظروف قاسية من الفقر والضنك لا يطلع عليها غيرها ، ولا ينقصهم الوقار والثقة بذاتهم وبربهم ، وعن مثل هولآء يتحدث القرآن في سورة البقرة "يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ" [الآية : ٢٧٣] ، وفي سورة الفرقان حيث ذكر الصفات الخاصة بعباد الرحمن وصفهم بهذه الصفة أيضاً ، فقال "وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا" [الآية : ٧٢] ، ولا شك فإن القرآن يلفت أنظار أتباعه إلى هذه الصفة بتأكيد ، ويطلب منهم أن يكونوا حملة صفات الرجولة والكرم والشجاعة والثقة كلها .

العفة والحياء : من الأخلاق التي حث عليها القرآن وأكد عليها الحياء والعفة ، وضدهما الوقاحة والفحشاء ، وقد عبر عنها القرآن بالفاحشة والفحشاء ، وضغط على النهي عنهما ، بل عدهما في رأس المحرمات التي ذكرها في عدة آيات ، كما في آية من سورة النحل تعتبر رسالة هداية جامعة على اختصارها ، ولذلك يقرأها الخطباء في خطب الجمعة بوجه عام ، يقول الله : "وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" [الآية : ٩٠].

وكذلك في سورة الأعراف حيث تحدث عن المحرمات الأساسية ذكر الفواحش في رأسها ، فقال : "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" [الآية : ٣٣] .

وهناك آيات غير هاتين الآيتين تنهى عن الفواحش ، والنهي عن الفواحش يرادف الأمر بالعفة والحياء ، كما أن القرآن الكريم نهى عن أمور هي بنفسها ليست من الفواحش ، ولكنها تساعد في الفاحشة ، فمثلاً أمر بغض البصر لغير المحارم من الرجال والنساء من غير أن يرى واحد منهما الآخر ، "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ" [النور : ٣٠- ٣١] .

والآية بظاهر لفظها تشير إلى أن غض البصر ليس إلا للتعفف والتورع ، بل إن أحكام الحجاب كلها تقوم على أساس أنه يصون نظام الحياء والعفة ، وعندما أمر المؤمنون في سورة الأحزاب بالسؤال من وراء الحجاب بقوله "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ" [الآية : ٥٣] ، تلا ذلك علة الحجاب وحكمته في قوله : "ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن" .

وفي نفس سورة الأحزاب بشر أصحاب العفة والطهارة الذين يحفظون فروجهم ويذكرون الله كثيراً من الرجال والنساء بشرهم بالمغفرة والأجر العظيم ، يقول : "وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الآية : ٣٥] ، وفي سورتي "المؤمنون" والمعارج" ذكر من بين صفات المؤمنين المستحقين رحمة

الله وجنته صفة عفتهم وطهر أخلاقهم فقال "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ" [المؤمنون : ٥ والمعارج : ٢٩].

والواقع أن العفة والحياء من تلك الصفات الإيمانية التي يرتبط بها مصير الإنسان من السعادة والنجاة في الأولى والآخرة .

الطهارة والنظافة : ومن بين تعاليم القرآن الخلقية الطهارة والنظافة أيضاً ، ومعنى ذلك أن يطهر المرء جسمه وثيابه من كل نجس وقذر ، وقد خاطب الله سبحانه رسول الكريم في سورة المدثر بهذا المعنى فقال : "وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ" [الآية : ٤- ٥] ، وفي سورة التوبة تحدث عن طبقة خاصة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واهتمامهم بالطهارة والنظافة ، ثم قال : "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ" [الآية : ١٠٨] ، وفي سورة البقرة يقول "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" [الآية : ٢٢٢].

كأن الطهارة والنظافة من تلك الصفات الجليلة التي يستحق العد من أجلها حب الله ولفتته الكريمة ، اللهم اجعلنا من التوابين واجعلنا من المتطهرين" .

التورع في المعاملات وأكل الحلال

ومن بين التوجيهات المهمة التي هدى إليها القرآن أتباعه لتزكية الحياة الإنسانية وبناء سيرة الإنسان . التورع في المعاملات ، والاكتساب عن طريق الحلال الطيب فقط ، فلا يكسبوا فلساً واحداً من غير هذا الطريق وقد ذكر في سورة البقرة بعد بيان فرضية الصيام وأحكامه الخاصة به "وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ" [الآية : ١٨٨] ، وبمثل هذه الكلمات المتقاربة جاء في سورة النساء "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ" [الآية : ٢٩] .

تناولت هاتان الآيتان معاني واسعة للمنع عن كسب الحرام وهي تتضمن جميع أساليب الكسب الحرام والأكل بالباطل ، وذلك كالربا والرشوة ، والقمار ، واليانصيب ، وتجارة الخداع والمكر ، وما إلى ذلك من طرق الكسب الحرام سواء كانت قديمة أو جديدة ، ولم يكتف القرآن في تحريم الربا والقمار بهذه الآية بل إنه صرح في عديد من الآيات بحرمتها كموضوع مستقل كما في سورة البقرة حيث ذم آكلي الربا وذكر مصيرهم أعلن بحرمته بقوله"وَحَرَّمَ الرِّبَا" [الآية : ٢٧٥] ، ثم أوضح نحس الربا وأن الله يمقته ويبغضه ويلعنه بقوله "يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا" [الآية : ٢٧٦] ، ثم خاطب الذين لا ينتهون عن تعامل الربا وأكله بأشد من ذلك فقال : "فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" [الآية : ٢٧٩] ، نعوذ بالله من ذلك .

وتحدث في سورة المائدة عن رجس كان قد شمل حياة العرب الأولين من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام فقال : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الآية : ٩٠] ، كذلك عن البخس في المكيال والميزان الذي هو خيانة قديمة وعظيمة فقال : "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ" [الإسراء : ٣٥] ، وفي سورة الرحمن "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" [الآية : ٩].

وقد أنذر القرآن الذين يطففون في الميزان ويبخسون في المكيال بعذاب القيامة . بأسلوب مرعب ومروع يرعد كل قلب فيه خوف من الله وذرة من الإيمان ، حتى لا يتجرأ على هذه الخيانة مهما كانت الظروف ، فقال في سورة التطفيف : "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" [المطففين : ١- ٦].

وكل إنسان يؤمن بالقرآن ككتاب الله من صميم قلبه ، كيف يستطيع أن يخون في الوزن والكيل ، فإن وجد أناس في المسلمين يدعون الإسلام ثم يخونون في الوزن والكيل فلا شك أن قلوبهم فارغة عن حقيقة الإيمان .

ومن أبشع طرق الأكل بالباطل وألعنها أن يتزيأ إنسان بزي العلماء والشيوخ ، ويتعرض أمام الناس كزاهد ورع ، ثم يحتال معهم في كسب الرزق والمال ، ويجتلب منهم هدايا ونذوراً بالخداع والمكر ، إن أمثال هولآء الخادعين يحاولون دائماً أن يتركوا أتباعهم في ظلام الجهل والأمية

، وفي بعد عن معرفة الدين الصحيح ، لكي يحتفظوا بطريقهم هذا الشيخ في الأكل بالباطل ، لأنفسهم ولأولادهم وأخلافهم ، وقد وجد هولآء في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود ، ولكن اليوم من سوء الحظ نشأت في المسلمين طبقة من الشيوخ والدراويش المزورين ، الذين يتجرن بالدين ويمثلون الإسلام أسوء تمثيل .

وعلى كل ، فمهما وجد هولآء الناس ، سواء في اليهود والنصارى أو في المسلمين أنفسهم فقد تناولهم القرآن بالذم "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" [التوبة : ٣٤] .

لقد كانت طبقة من أئمة اليهود وأحبارهم في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم لها اطلاع واسع على الكتب السماوية الأولى ومحتوياتها ، التي كانت تصدق شريعة النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته ، ولكن هذه الطبقة لم تكن تظهر هذه الحقيقة للعامة ، بل كانت تخفيها بالتأويل والتحريف ، لكي لا يبتعد عنها هولآء البسطاء ويظلوا يقدمون لها الهدايا والنذور ، ويكرموها بالإجلال والتعظيم ، فوجه إليها القرآن أشد وعيد وقال : "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" [البقرة : ١٧٤] .

وحينما وضع القرآن الكريم حداً على كل طريق حرام للأكل والاكتساب ، والمآكل المحرمة ، وأنذر الذين يخالفون ذلك بالعذاب ، حث كذلك على المكاسب الطيبة والمآكل النظيفة وما أوسع نطاقها وأمر بالتمتع بها كنعمة من الله ، بكل حرية ، ثم شكره عليها ، ولا حاجة

إلى التضايق في ذلك ، جاء في سورة البقرة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" [الآية : ١٧٢] ، وفي سورة النحل "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" [الآية : ١١٤] ، وفي سورة المائدة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ" [الآية : ٨٧- ٨٨].

هذه الآيات كلها تشير تجنب الأكل بالباطل والحرص على ترك المشبهات ، من المآكل والمشارب ، والأخذ بالتورع الشديد في ذلك ، إذ أن صلاح الإنسان وتقواه لا ينفعان أبداً ما دام الحرام يجد إليه سبيلا ، كما أن الحرام يحول دون استجابة دعائه ، وتقبل أعماله الصالحة عند الله أيضاً .

فليكفر كل إنسان في هذه الناحية ، ويدقق النظر والتحري في أكل الحلال الطيب ، وقد أصبح الناس في هذا العصر لا يهتمون بهذا الجانب إلا قليلاً ، ولا سيما المشتغلين بالتجارة فإنهم قليلا ما يفكرون في الحلال والحرام ، ولا يبالون بذلك في سبيل كسب الأرباح واكتناز الأموال والمنافع .

الكفاح في سبيل نشر الحق وتعميم الفضيلة

تحدثنا عن توجيهات القرآن في مختلف شعب الحياة فيما أسلفنا من الكلام بنوع من التفصيل ، وهل يمتري ذو عقل سليم في أن كل ذلك توجيهات إلى طريق الحق والفضيلة ، والقرآن حينما يطالب بتنفيذها في الحياة العملية يطالب أيضا بالكفاح في سبيل نشرها وتعميمها بين الناس ، لكيلا يألو المسلم جهداً في دعوة عباد الله إلى الحق والفضيلة حتى إذا اتخذوهما شعارهم في الحياة وطبقوهما على كل جزء من أجزائها استحقوا رحمة ربهم ورضاه في الدنيا والجنة ونعيمها في الآخرة .

تختلف أشكال هذا الجهد باختلاف الأحوال ، فالدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، كل ذلك عناوين لهذه الأشكال المختلفة ، فما هي مطالبة القرآن الكريم ودعوته في هذا الموضوع ؟ ولكي نوضح ذلك نتلو عدة آيات من القرآن ، يقول الله تعالى : "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [آل عمران : ١٠٤] .

وقد يغتر بعض الناس بكلمة "منكم" في هذه الآية بأن القرآن لا يوجه هذه المسؤلية إلى جميع أفراد الأمة ، وإنما هي مسؤلية تختص بطبقة خاصة منها ، ولكن قليلاً من التفكير في الفقرة الأخيرة من الآية وهي : "وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" ترد على هذا الخطأ ، إذ أنها تحصر الفلاح والفوز للذين يقومون بهذا الواجب ، وكل عمل يتوقف عليه الفوز والسعادة لا يطالب من طبقة خاصة دون الناس بل إنه يعم جميع أفراد الأمة .

ثم إن القرآن يكرر نفس هذا الطلب بعد عدة آيات من الآية المذكورة ، ويقول : "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" [آل عمران : ١١٠] ، وهذه الآية تفسر الغاية التي أخرجت من أجلها هذه الأمة ، وتلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بإصلاح الناس وتهذيب النفوس ، وهذه الآية كذلك توضح بأن هذه المسؤلية لا تقع على عاتق طبقة خاصة من الأمة ، وإنما الأمة الاسلامية كلها مسؤلة عنها ، غير أن نوعية هذه المسؤلية تجعل في غالب الأحيان أن يتحملها الذين يصلحون لحمل عبئها ، لا كل أفراد الأمة ، فإن اشتغال هولآء الدعاة بعمل الدعوة وتعاون أفراد الأمة عليها يضمن أداء الواجب ، ولعل كلمة "منكم" فيما أرى — في الآية الأولى تشير إلى هذه الناحية ، والله أعلم .

وجاء في سورة حم السجدة : "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" [الآية : ٣٣] ، وأي عبد أحسن من الذي يدعو الناس إلى الله إصلاحاً ونصحاً لهم ، مع ما يتمتع به هو نفسه من الإيمان وصالح العمل ، كما جاء في سورة العصر : "وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" [الآية : ١- ٣] ، اشترط الله سبحانه في هذه الآيات التواصي بالحق والصبر للتفادي من الخسران والفوز بالسعادة والفلاح ، ولا شك أن معنى التواصي بالحق دعوة الناس في كل جزء من أجزاء الحياة سواء في العقائد والإيمان والأخلاق والمعاملات ، فريدة كانت أو جماعية ، شخصية كانت أم قومية ودولية ، وسواء مع أهله وأقربائه أو غيرهم ، دعوتهم إلى الحق في كل صغير وكبير ، وكذلك معنى التواصي بالصبر أن

يتمتع المسلم نفسه ويمنع غيره عن كل ما يسبب له ضرراً أو خسارة من الحيد عن الطريق المستقيم والخضوع لعوامل النفس .

وعلى كل ، هذه السورة تدل على أن هذا العمل أيضا مثل الإيمان والعمل الصالح لمن الواجبات الأساسية التي لا يمكن تحقيق السعادة بدونها ، ولقد قلنا : إن أوسع وأشمل عنوان لهذا العمل الجهاد في سبيل الله أيضا ، الذي يعني بذل الجهود البالغة في سبيل الله ، وإعداد النفس لكل تضحية وكل عنت ومشقة في سبيل دعاء الناس إلى الحق والتواصل بهم إلى الجهاد والكفاح اللذين يرضيان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

هذا هو معنى الجهاد في الواقع ، غير أن أشكاله تتبدل باختلاف الأحوال والظروف ، فمثلا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة إلى الله ، ومواظبته على عمله رغم كل الآلام والمشاق التي انهالت عليه كانت نوعاً من الجهاد ، وكذلك جهوده وكفاحه في الأيام الأولى من الهجرة إلى المدينة التي بذلها مع أصحابه الكرام رضي الله عنهم في سبيل الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالته إلى الناس ، ثم تحمل فيه من المشاق والأذى قسطاً كبيراَ ، كل ذلك يعتبر جهاداً ، كما يسمى ذلك القتال الذي تولاه في معارك بدر وأحد وحنين ضد الكافرين ، الجهاد أيضاَ .

فالقرآن حيثما يطالب الجهاد في سبيل الله من عباده المؤمنين يعني به تقديم كل تضحية وكفاح في سبيل إنقاذ العباد من عبودية النفس والشيطان وإدخالهم في عبودية الله تطهيراً للحياة من كل وثنية وشرك وتزكية للنفس من كل رجس وفسق ، وقد أولى القرآن هذا الجهاد أهمية

كبرى ، فعبر عنه بنصرة الله وعن القائمين به بأنصار الله ، ووعد لهم بالسعادة والنجاح في الدنيا والفوز بالنعيم والجنة في الآخرة ، اقرأوا عدة آيات من أواخر سورة "الصف" .

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ" [الآية : ١٠- ١٤] .

وجاء في سورة المائدة : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الآية : ٣٥] ، وختم سورة الحج قائلاً : "وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" [الآية : ٧٨] .

وصرح في سورة الحجرات أن الجهاد في سبيل الله والكفاح للدين والتفاني في سبيله من لوازم الإيمان ، وأن المؤمن الصادق هو الذي يؤمن بالله ورسوله ولا يخامر نفسه أي ريب أو شك منهما ، ويحب الجهاد في سبيل الله ، يقول : "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ

يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" [الآية : ١٥].

ولنقرأ أخيراً آية من سورة التوبة تصف شأن المؤمنين الصادقين ، وتذكر حبهم وإخلاصهم لله ولرسوله ، ورغبتهم في الجهاد ، وليس مؤمناً صادقاً من لا يحمل هذه الصفات ولا يؤثر الله ورسوله والجهاد في سبيلهما على رغائب الدنيا كلها من الأهل والأولاد والأموال والتجارات والمساكن ، يقول الله سبحانه : "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" [الآية : ٢٤]

وفي الآية دليل على أن من شأن المؤمن أن الكفاح في سبيل الله والجهاد لدينه أحب إليه من كل شيئ ، ومن كل متاع ، فليس ذلك عملاً فقط ، وإنما هوالحب الذي تدور حياته كلها حوله ، وهو يعيش دائماً في أمنية الجهاد وبذل المهج والأرواح في سبيل الدين ، وهذا الحب يتغلب على كل عمل مهما كان شاقاً وكبيراً .

يقول الشاعر ما معناه :

إن في سبيل حب ليلى أخطاراً كثيرة وعقبات كثيرة ، غير أن الشرط الأول للتغلب على كل هذه الأخطار وتذليل هذه العقبات أن تفقد عقلك ورشدك وتصبح مجنوناً .

الباب الرابع

المواعظ في القرآن

المواعظ في القرآن

القرآن كله موعظة وذكرى من غير شك ، وكل ما أسلفناه من الكلام في ضوء الآيات التي سقناها حول عناوين مختلفة لا يخلو من موعظة وتذكرة ، غير أن في القرآ ن مناسبات كثيرة تتركز فيها معاني الموعظة وأسلوب الخطابة ، ولكن ما أدرجناها في سباق الإيضاحات والانطباعات التي سبقت ، فيحلو لنا أن نذكر ذلك في هذا المقال ، وعلى رغم أن في القرآن مناسبات تتجاوز المآت ، تتناول عشراً منها ونورد آياتها وفق الترتيب القرآني ، وسيكون ذلك آخر ما نريد أن نتحدث عنه في هذا الموضوع ، وهو خاتمة بحثنا فيه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم" .

١. الاستعانة بالصبر والصلاة في المحن والبلايا :

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" [البقرة : ١٥٣- ١٥٧].

فكم من مدعاة للصبر والتعزي تنطوي عليها الآيات المذكورة لعباده المؤمنين ، إن إيجاد صفة الصبر في النفس ، والاتصال بالله سبحانه عن طريق الصلاة ، واستحضار حقيقة أن الله تعالى هو المالك الحقيقي لكل

ما في أيدينا من مال ومتاع ، ومراقبة حقيقة المعاد إلى الله ، كل ذلك مما يشحن القلب قوةً وتأييداً وما دامت هذه القوة باقية في مؤمن لا يشعر بأي ضعف أو خور في النفس .

٢. طلب المسارعة إلى الجنة والمغفرة :

وجاء في سورة آل عمران :

"وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ" [الآية : ١٣٢- ١٣٦].

كأن ربنا تبارك وتعالى يعلن أن باب الرحمة والمغفرة لا يزال مفتوحاً على مصراعيه حتى لعباده المذنبين الذين لا يصرون على الذنوب ويتوبون إليه مستغفرين طالبين رحمته "اللهم إنا نسألك الجنة" .

٣. الأحكام والنصائح الأساسية للدين .

وقال في سورة الأنعام :

"قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا

الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" [الآية : ١٥١- ١٥٢].

٤. عاقبة المستجيبين لأمر الله وعاقبة غيرهم

اقرأوا الآيات التالية من سورة الرعد ، وأحكموا ، أي طريق تختارونه ، وأي فريق ترافقونه من الفريقين ؟ :

"لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ" [الآية : ١٨- ٢٥].

٥. إنذار شديد إلى المجرمين المتمردين عن مصيرهم يوم القيامة .

ولنقرأ الآيات الأخيرة من سورة إبراهيم ، ما أشد إنذار الله سبحانه وتعالى وأبعث للرعدة في القلب ، يقول :

"وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ" [الآية : ٤٢- ٥٢].

٦. التوجيهات الأساسية وأحكام الله تعالى .

وجاء في سورة بني اسرائيل :

"وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا

رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا" [الآية : ٢٣- ٣٩].

يا سبحان الله! ما أجمع موعظة القرآن هذه للأحكام الإلهية والتوجيهات الربانية ، وذلك في أسلوب سبل سلسال يخلف تأثيراً عميقاً في النفس ، ولا شك فإن من رزق تذوقاً صحيحاً للقرآن يتبادر بشهادة من قلبه أن هذه التوجيهات ليست إلا من عند رب العالمين وكلام أحكم الحاكمين .

٧. واجبات الأمة الإسلامية وهدفها

وتحدث في آخر سورة الحج عما يشير إلى واجبات الأمة الإسلامية وأهدافها ، يقول :

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ" [الآية : ٧٧- ٧٨].

أنظروا كيف بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الوجيزة العديدة أهداف الأمة الإسلامية ، وغاية وجودها ، ومنصبها وواجباتها ، حتى إذا لم تكن هناك آية غير هذه الآيات لكفت هداية وإرشاداً للناس ، وفقنا الله جميعاً لكي ندرك مدى أهمية غايتنا وواجبتنا ، ونصوغ حياتنا وفق هذه التعاليم الربانية ونستحق رحمة الله ورضاه ، فإن الله ذلك لمن عزم الأمور لكل إنسان .

٨. دعوة الله عباده المسرفين وعاقبة المكذبين .

يقول الله سبحانه في سورة الزمر :

"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا

أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ" [الآية : ٥٣- ٧٠].

٩. بشرى الله إلى عباده المؤمنين المهتدين .

وجاء في سورة حم السجدة :

"إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [الآية : ٣٠- ٣٦].

١٠. التوقي من نار جهنم ، والفوز بالجنة والسعادة

وقال سبحانه وتعالى في سورة التحريم :

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [الآية : ٦- ٨].

هذه المواعظ العشر التي أوردنا هنا ليست إلا قطرة من اليم الهائج المائج ، الذي يحمل دروساً كثيرة وعبراً عظيمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ولا سيما الربع الأخير من القرآن وأعني من سورة السبأ إلى آخر القرآن يزخر بالمواعظ والتوجيهات للحياة الإنسانية ولا يلبث من رزق التذوق باللغة العربية إلا ويشعر في هذا الجزء بتأثير غريب وحالت نفسية عجيبة عند ما يتلوه بدقة وتأمل ، وذلك ما يعبر عنه القرآن بنفسه

ويقول : "تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ" [الزمر : ٢٣].

وقد كان بودي أن أسوق إلى القراء مزيداً من الأمثلة حول هذا العنوان ، ولكن لا أعتقد أن أمنيتي بالزيادة تنتهي عند ذاك أيضا فأكتفي بهذا القدر ، وأرجو من القارئ الكريم أن لا يعتبر هذا الحديث إلا مثالاً لموعظة القرآن وذكراها التي يوجهها إلى الإنسان وإنى أحلف بالله — وأقول : إن كل ما كتبته عن القرآن ودعوته وتعاليمه ، لا يعدو قطرة من بحر متلاطم لا ساحل له ، فينبغي أن نألف القرآن ونقترب إليه بمثل هذه الجهود لكي يتمهد لنا الطريق نحو التأمل في معانيه والتدبر في آياته ، فإن الاتصال بالقرآن معناه الاتصال بالله ، سهل الله لنا هذا الاتصال وجعلنا من الفائزين برضاه . والحمد لله أولاً وآخراً .

فهرس الكتاب

كلمة الناشر
كلمة المترجم
بين يدي الكتاب
نبذة من حياة فضيلة الشيخ محمد منظور النعماني رحمه الله تعالى

الباب الأول

العقائد

الإيمان بالله أساس عقيدتنا
الله جل جلاله في ضوء صفاته
١. إحاطة الله بكل شيئ
٢. صفة قدرة الله على كل شيئ
٣. صفات الخلق والأمر والرزق
٤. الحكم لله ، وهو مالك الكائنات .....
٥. الأمر كله لله ، وليس لأحد أن يتصرف ....
انحراف الأمم عن تصور الإله الصادق
التوحيد : دوره في تزكية الفرد والاجتماع
١. توحيد الذات وتوحيد الألوهية
٢. توحيد الصفات وتوحيد الأفعال
٣. الكون كله وما يحويه تحت أمره
٤. نظام الكون بيد الله
٥. إن الله لهو الحي ، وهو عالم الغيب والشهادة

٦. توحيد الحقوق

٧. الولاء والخشية لله

أهم ما يتطلبه القرآن في باب التوحيد

التوحيد في الدعا والتوحيد في العبادة

الدرس الأخير في باب التوحيد

ذم الشرك والمشركين والبراءة منهم

الإيمان بالآخرة

تأكيد القرآن على ضرورة الآخرة

ما هي الحاجة إلى الآخرة؟

حجة أخرى للقرآن على ضرورة الآخرة

شبهات سخيفة حول الآخرة

الرد على شبهات المنكرين بالآخرة

ما ذا في الآخرة؟

مراحل الآخرة؟

مقر الإنسان في الآخرة

الجنة والنار

عقيدة النبوة والرسالة كما يتحدث عنها القرآن

الباب الثاني

العبادات

عبادة الله : مفهومها وأنواعها

التقوى بعد الإيمان واليوم الآخر والنبوة

التقوى وخصائص المتقين

التقوى هي أصل الحسنات وروح الأعمال
الإحسان إلى العباد وحسن القيام بحقوقهم
مع الأهل والأولاد
حقوق العامة والإحسان إليهم
الحقوق الخاصة بالأخوة الإسلامية

الباب الثالث

الأخلاق

دعوة القرآن إلى فضائل الأخلاق ، ونهيه عن رذائلها
الصبر
عاقبة الصابرين ومكانتهم
الصدق
الإيفاء بالعهد
الأمانة
العدل والنصفة
السماحة والسخاء
والإيثار
البخل
الاستغناء والقناعة
التوكل
التواضع
الاستكبار والخيلاء
الحلم والصفح

الجراءة والبسالة
العفة والحياء
الطهارة والنظافة
التورع في المعاملات وأكل الحلال
الكفاح في سبيل نشر الحق وتعميم الفضيلة

الباب الرابع

المواعظ في القرآن

الاستعانة بالصبر والصلاة في المحن والبلايا
طلب المسارعة إلى الجنة والمغفرة
الأحكام والنصائح الأساسية للدين
عاقبة المستجيبين لأمر الله وعاقبة غيرهم
إنذار شديد إلى المجرمين المتمردين ....
التوجيهات الأساسية وأحكام الله تعالى
واجبات الأمة الإسلامية وهدفها
دعوة الله عباده المسرفين وعاقبة المكذبين
بشرى الله إلى عباده المؤمنين المهتدين
التوقي من نار جهنم والفوز بالجنة والسعادة